بلاغة الحجاج في قصة تخلف كعب بن مالك عن غزوة تبوك

د.صابر محمد السيد جويلي
أستاذ النقد والبلاغة المساعد بقسم اللغة العربية-آداب الإسكندرية
saber.geweely@alexu.edu.eg

ملخص البحث باللغة العربية:

الحديث النبوي الشريف هو المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي؛ومن ثم فهو نص كلي محوري في الثقافي العربية الإسلامية.والحجاج ظاهرة متأصلة وقيمة متجذرة في أعماق منظومتنا الفكرية،وظاهرة ذات أبعاد سردية وأسلوبية لا تخطئها العين فيها،ولها فيها دواعيها،كما أن لها معانيها ووظائفها البلاغية والتداولية.

وهذا البحث يحاول أن يُسهم في مزيد من الفهم لمنظومتنا الفكرية من هاتين الناحيتين،عبر الولوج من باب الحجاج لدراسة الحديث الشريف،ممثلاً في حديث قصة تخلف كعب بن مالك-رضي الله عنه- عن غزوة تبوك.

ولهذا الاختيار ما يبرره؛ذلك أن الحجاج في هذا الحديث كان مقصودًا متعمدًا، كما كان موظفًا فنيًا لأداء رسالة ما، وهو ماسٌّ بالخطاب مَسَاسَه بالبناء السردي.وقد أغرى هذا بدراسةٍ تحاول تتبع هذه المسألة وسبر أغوارها،وفق منهج وصفيٍّ تحليليّ،قائم على انتقاء عينة عمدية،يغلب على الظن أنها تمثل مجتمع البحث تمثيلاً حَسَنًا.وجاء البحث في خمسة مباحث-بين مقدمة وخاتمة-الأول عن معنى القصة ومعنى الحجاج لغة واصطلاحًا،والثاني:مقدمات الحجاج ومسلَّماته،والثالث:وسائل الحجاج في قصة كعب.أما المبحث الرابع فعن آليات الحجاج في النص،وأخيرًا يأتي المبحث الخامس عن استراتيجيات الخطاب الحجاجي في قصة كعب.

الملخص بالإنجليزية:

The hadith of the Prophet is the second source of Islamic legislation, and therefore it is a universal and pivotal text in the Arab-Islamic culture. Argumentation is an inherent phenomenon and a value rooted in the depths of our intellectual system, and a phenomenon with unmistakable narrative and stylistic dimensions, and it has its motives, as well as its meanings and rhetorical and deliberative functions.

This research tries to contribute to a greater understanding of our intellectual system from these two aspects, by entering through the door of argumentation to study the noble hadith, represented in the hadith of the story of the failure of Ka'b bin Malik - may God be pleased with him - from the Battle of Tabuk.

This choice is justified, because al-Hajjaj in this hadith was deliberately intentional, just as he was a technical employee to perform a message, and it is a discourse with an infringement of the narrative construction. The first is about the meaning of the story and the meaning of argumentation linguistically and idiomatically, the second: the premises of the pilgrims and their postulates, and the third: the means of the pilgrims in the story of Ka'b. The fourth topic is about the mechanisms Al-Hajjaj in the text, and finally comes the fifth topic on the strategies of Al-Hajjaj's discourse in the story of Ka'b

الكلمات المفتاحية:الحجاج-حجاج الإيتوس-الباتوس-اللوجوس-كعب بن مالك-غزوة تبوك-الحديث النبوي الشريف-البلاغة

المقدمة

الحمد لله وحده،والصلاة والسلام على من لا نبي بعده،محمد المصطفى الذي أُوتي جوامع الكلم،ورضي الله عن آله الأبرار وصحابته الأخيار،أولي الفصاحة واللَّسَن.وبعد،فإن قصة تخلف كعب بن مالك-رضي الله عنه-عن غزوة تبوك مشهورة في كتب الحديث النبوي الشريف،وبها عُنِي الشارحون عنايتهم بغيرها من أحاديث النبي الأكرم،لكنها لم تلق من عناية البلاغيين-قديمهم ومحدثهم-مثل هذه العناية،على ما هي عليه من ثراء من الناحية البلاغية،فطمح الباحث إلى سد هذه الثغرة،بالإطلال على هذا الحديث من نافذة الحِجَاج،محاولاً أن يضرب عصفورين بحجر واحد:أن يعرض بلاغة هذا النص،وأن يكون هذا وفق منهج حديث في الدراسة،لا يبرأ من بلاغتنا الخالدة التالدة،ولا ينسلخ منها،وإنما يحاول أن يثري البحث فيها بطريقة جديدة-نوعًا ما-في التناول،توسع نطاق البحث،وتعمق مجراه.

وكعب بن مالك-رضي الله عنه- صحابي جليل،أنصاري،خزرجي،من بني سلمة،أبوه وأمه من هذا الحي من الأنصار.نافح عن الإسلام بسيفه،فشهد المشاهد كلها مع الرسول-صلى الله عليه وسلم-إلا بدرًا وتبوك،فكان هذا مثار تساؤل ،دار حوله جزء من الحديث محل الدراسة الراهنة،ودافع كعب عن دين الله بلسانه؛إذ كان شاعرًا مطبوعًا(1)،شهد له بهذا القاصي والداني(2)،حتى نقرأ إن قبيلة دوس أسلمت خوفًا من أبياتٍ قالها كعب!(3).ويرى الباحث في هذا مبالغة واضحة،لكنها مبالغة تدل على ما اتُّفِق عليه من أثر شعره القوي في نصرة الدعوة وزجر أعدائها،وعرف هو هذا لنفسه،فقال إنه أُوتي جدلاً،بمعنى أن لديه من إمكانات(الحجاج) وآلياته ما يمكنه من إفحام خصومه،والنهوض بحجته،فكان هذا مما أغرى الباحث بأن يُقدم على هذا البحث،لاسيما والموقف الذي يصفه النص ههنا حجاجي بامتياز ،إلى وجازته وتكثيفه،ومع هذا لم يدرسه الباحثون من هذه الزاوية،غير أن لهم في الحجاج عامةً دراسات لا تُحصى(4)،ولهم في الحجاج في الحديث النبوي خاصة دراسات،يأتي بعضها عند الحديث عن الدراسات السابقة.

والقارئ المدقق لقصة كعب يدرك أنه لم يكن يسرد ما كان من أمر تخلفه عن غزوة تبوك بشكل إخباري تقريري،وإنما كان(يقص) ليدافع عن(قضيته) أمام كل من سيسمع قصته هذه ممن سيأتون بعدُ في كل زمان ومكان،بالاستناد إلى أمرين مهمين:

أ-أسلوب لغوي بياني رفيع المستوى،ينتقي كعب مفرداته بعناية،ويرتب وحداته لأهداف جمالية محددة،لا تنفك عن أهدافه الحجاجية الكلية،أي في إطار ما يمكن أن نطلق عليه(الحجاج اللغوي).

ب-عناية واضحة بالتأثير الذي سيحدثه الخطاب في المتلقي الكوني-غير المحدد بالزمان والمكان-الذي سيقرأ القصة أويسمعها.

تساؤلات البحث:

1-أتعمد كعب بن مالك-رضي الله عنه-أن يبني قصته بناء حجاجيًّا أم كانت مجرد صياغات بلاغية تقليدية اعتاد شاعر مثله أن يمتع بها جمهور سامعيه؟

2-ما الآليات الحجاجية التي وظفها في قصته؟

3-ما مدى نجاحه في تحقيق ما ابتغاه من أهدافٍ لحجاجه؟

4-ما صور الحجاج وأشكاله الموجودة في حديث كعب بن مالك محل الدراسة؟

7-ما أدوار الحجاج في البناء السردي للنص موضوع الدراسة؟

أهداف البحث:

1-التأكيد على البعد الحجاجي لقصة تخلف كعب بن مالك-رضي الله عنه-عن غزوة تبوك.

2-وصف البنية الحجاجية لقصة تخلف كعب عن تبوك.

2-استقراء وسائل الإقناع المنطقية في القصة.

3-الكشف عن الإمكانات والخصائص اللغوية التي دعم بها كعب-رضي الله عنه- موقفه،ومصادر الطاقة الحجاجية في خطابه،وروافد قوته الإقناعية،سواءً فيما جهر به أم ما أضمره.

4-الوقوف على أهم الأدوات الحجاجية التي كان لها دور في بناء القصة محل الدراسة.

مشكلات البحث:

على رأسها ذلك الحشد الحاشد من المصطلحات والاتجاهات والآراء المتشعبة،التي كثيرًا ما تتداخل وتتعارض وتلتبس،تحت مظلة مفهوم الحجاج،والتنوع الواضح بينها،الذي يصل في كثير من الأحيان إلى التباين بل التضارب.وقد حاول الباحث ما استطاع تبني وجهة نظر حجاجية توفيقية متماسكة،تفيد من أدوات أكثر من مدرسة حجاجية.

منهج البحث :

يرنو هذا البحث إلى استكناه طبيعة نص قصة تخلف كعب بن مالك-رضي الله عنه-عن غزوة تبوك،واستنطاق بنيته في ضوء مقاربة بلاغية حجاجية تكشف عن أبعاده الوظيفية،وفق منهج وصفي تحليلي.

حدود البحث:

هذا البحث عن نص واحد محدد،هو قصة تخلف كعب بن مالك–رضي الله عنه–عن غزوة تبوك،كما ورد في صحيح البخاري(5)،وهو نص مميز عن قصة مهمة،كيف لا وقد نزل فيها ما نزل من القرآن؟!(6).وتقتضي أهداف البحث تجريد المصطلح –في المبحث الأول–في محاولة لإلقاء الضوء على المفاهيم الأساسية ذات الصلة بموضوع البحث،والانتهاء إلى هيكل توفيقي يَقْبِس من مناهج الحجاج المتنوعة،ما لعله يصلح أن يُطبَّق ههنا.

الدراسات السابقة

لم تُدرَس قصة تخلف كعب عن غزوة تبوك من قبل –فيما يعلم الباحث– دراسةً بلاغية حجاجية،لكن للدارسين أبحاثًا في الحجاج في الحديث النبوي عامة،أو لهم في حديث كعب هذا خاصة،لكن من زوايا بحثية أخرى غير الحجاج.وأهم تلك الدراسات السابقة:

1–أمينة تجاني وليلى سهل:"الحجاج في القصة النبوية الاجتماعية"

بحث منشور بمجلة العلوم الإنسانية،جامعة محمد خيضر بسكرة،الجزائر،يوليو2017م،وهو بحث في الحديث الشريف من زاوية تبنيه الحجاج أسلوبًا في إقناع المتلقي،والتأثير فيه،وتغيير معتقداته وأفكاره؛ومن ثم أفعاله وسلوكه،مع التركيز على القصة النبوية وبنيتها في ضوء الحجاج.

2–سماح يوسف هويشل السميرات:"تداولية الحوار في حديث كعب بن مالك"

بحث منشور بمجلة العلوم التربوية،عمادة البحث العلمي،الجامعة الأردنية،العدد الثالث،المجلد46،2019م.وهو بحث من خمس وعشرين صفحة،ركز على جانب من الجوانب التداولية المهمة في حديث كعب،هو الحوار،ورصدت الباحثة في الحديث عشرة حوارات،حللت كلاًّ منها تحليلاً ضافيًا.

3–سهام بورقعة:"حجاجية الخطاب في الحديث النبوي الشريف.دراسة نماذج مختارة"

رسالة ماجستير غير منشورة،قسم الأدب العربي،كلية الآداب واللغات والفنون،جامعة د.مولاي الطاهر–سعيدة،الجزائر،السنة الجامعية 2018/2017م.في قرابة مائة وخمسين صفحة،تشغلها ثلاثة فصول غير المقدمة والمدخل والخاتمة.وبعد المدخل–الذي كان عن مفهوم الحديث وحكم الاحتجاج به–جاء الفصل الأول عن مفهوم الحجاج،وعرض سريع لتاريخه عند العرب والغرب،وعلاقته بالدرسين البلاغي والتداولي،ونظرية المساءلة.ثم كان الفصل الثاني عن الخطاب الحجاجي:مفهومه وخصائصه وأسسه.ثم جاء الفصل الثالث تطبيقيًّا على مجموعة من الأحاديث النبوية المختارة،بتحليلها تداوليًّا مع التركيز على نظرية أفعال الكلام.

4–عاشور مزيلخ:"تقنيات الحجاج البلاغي للخطاب النبوي الشريف"

بحث منشور بمجلة جامعة كيرالا،قسم العربية،العدد الثالث،المجلد الأول،2012م،حاول صاحبه استعراض تقنيات الحجاج البلاغية في الحديث الشريف،كالاستعارة والبديع والتمثيل،والبنية الحجاجية للخطاب النبوي،بعد دراسة مستويات الخطاب فيه،ومسوغات استعمال الخطاب التوجيهي والتعليمي والإقناعي.

5-د.عبد الهادي أحمد سيد عبد العال:"الأساليب البلاغية لوصف أحوال النفس في حديث كعب بن مالك-رضي الله عنه-في صحيح مسلم"

بحث بمجلة كلية اللغة العربية بأسيوط،جامعة الأزهر،العدد الثالث والثلاثون،الجزء الرابع،2014م،في بضع وثمانين صفحة،ركز فيه صاحبه على الدلالات النفسية للتعابير اللغوية في حديث كعب،في ضوء رواية مسلم لها في صحيحه،وعلاقة ذلك بالبلاغة،على مستوى الكلمات والأساليب.

ولا شك في أن الباحث أفاد من الدراسات السابقة كلها،غير أن له بالطبع وجهة نظر مغايرة،وتناولاً مغايرًا في معظم مواضع البحث الراهن.

المبحث الأول:تجريد المصطلح

القصة:

القصة لغةً:

"القاف والصاد أصل صحيح يدل على تتبع الشيء.ومن ذلك قولهم:اقتصصتُ الخبر والأثر،إذا تتبعته.ومن ذلك اشتقاق القِصَاص في الجِراح،وذلك أنه يُفعل به مثلُ فِعله بالأوَّل،فكأنَّه اقتصَّ أثره.ومن الباب:القِصَّة والقَصص،كلُّ ذلك يُتتبَّع فيُذكر"(7)."والقِصَّةُ:الخَبَر،والقَصَص.وقَصَّ عليَّ خبَرَه يقصُّه قَصًّا،وقَصَصًا:أورده.والقَصَص:الخبر المقصوص.وتقَصَّص كلامه:حَفِظَه.وتقصَّص الخبرَ:تتبَّعه"(8).و"قصصتُ أَثَرَه،وقصصتُه:اتبعتُه قَصَصًا.(وقالت لأخته قُصيه) واقتصصتُه وتقصَّصتُه،وخرجتُ في أَثَر فلانٍ قَصَصًا(فارتدا على آثارهما قصصا)..وقصَّ عليه الحديث والرؤيا،واقتصَّه.وتقصصتُ كلام فلان،وله قِصَّة عجيبة،وقَصَصٌ حَسَن"(9)

وعند ابن منظور في لسان العرب:"القصُّ فِعلُ القاصِّ إذا قَصَّ القِصَص،والقِصَّة معروفة.ويُقال:في رأسه قِصَّة يعني الجملة من الكلام،ونحوه قوله تعالى:(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)(يوسف:3)؛أي نبين لك أحسن البيان.والقاصُّ:الذي يأتي بالقصة من فصِّها. ويُقال:قصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئًا بعد شيء،ومنه قوله تعالى:(وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ)(القصص:11)؛أي اتبعي أثره،ويجوز بالسين:قسست قسًّا"...وتقَصَّصَ كلامه:حَفِظَه.وتقصَّص الخبر:تتبَّعه.والقِصَّة:الأمر والحديث.واقتصصتُ الحديث:رويته على وجهه،وقصَّ عليه الخبر قَصصًا..يقال:قصصت الرؤيا على فلان إذا أخبرته بها ،أقصُّها قَصًّا.والقَصُّ:البيان،والقَصص بالفتح:الاسم.والقاصُّ:الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها(10)

القصة اصطلاحًا:

لا يتفق الدارسون المعاصرون على تعريف للقصة القصيرة،ولا على شكل محدد لها،ولا على فروق جوهرية بينها وبين الرواية(11)،لكن هناك محاولات لتعريفها بالنظر إلى بنيتها،التي يُقصَد بها جملة العناصر المكونة للنظام الداخلي لها،والعلاقات المنطقية التي تحكم الشخصيات من جهة وراويها من جهة أخرى،أو جملة العناصر الشكلية التي تشكل المكونات والأحداث والنظام اللغوي الذي يسود القصة(12)

وفي هذا الإطار هناك تعريف جيد للقصة بأنها:"حكاية أدبية،تُدرَك لتُقَصّ،قصيرة نسبيًّا،ذات خطة بسيطة،وحدث محدد،حول جانب من الحياة،لا في واقعها العادي والمنطقي،وإنما طبقًا لنظرة مثالية ورمزية،لا تنمي أحداثًا وبيئات وشخوصًا،وإنما توجز في لحظة واحدة حدثًا ذا معنى كبير"(13)

ولعل هذا التعريف يصلح تعريفًا إجرائيًّا للقصة محل البحث الراهن؛إذ فيها معظم أركان هذا التعريف وشروطه،خاصة مع توفر إطار الحكاية-أو البنية الدرامية-المعروف،من شخصيات،وأحداث،وصراع،وذروة،وتعليق،وحلّ.

ولماذا اختار كعب-رضي الله عنه-نمط القصة؟ لأن معرفة المتلقي بالمتكلم وبنوع النص يساعدان في تحفيز التركيز على فعل القراءة،ويعينان في تعميق انتباهه،ومن ذلك ميل بعض القراء إلى تقبل نوع معين من النصوص؛فلكل نوع قراؤه الذين لهم طبيعة خاصة في قراءتهم،وفي توجههم،وفي ردود فعلهم بعد فعل القراءة(14).ونمط القصة أكثر الأنماط قبولاً،وأقربها إلى قلب معظم الناس.وقد أغرت الإمكانات السردية الكامنة في هذا الحديث بمحاولات لإعادة صياغته قصصيًّا(15)

الحجاج:

الحجاج لغةً:

"الحاء والجيم أصول أربعة:فالأول:القصد،وكلُّ قَصْدٍ حجٌّ..ثم اختُصَّ بهذا الاسم القصدُ إلى البيت الحرام للنُّسُك...وممكنٌ أن يكون الحُجَّة مشتقة من هذا؛لأنها تُقْصَد،أو بها يُقصَد الحقُّ المطلوب.يُقال:حاججتُ فلانًا فحججته أي:غلبتُه بالحجَّة،وذلك الظَّفر يكون عند الخصومة،والجمع: حُجج.والمصدر:الحِجَاج"(16)،و"والحُجَّة:ما دُوفِع به الخَصْمُ،والجمعُ حُجَجٌ وحِجَاجٌ.وحاجَّه مُحَاجَّةً وحِجاجًا:نازَعَه الحُجَّة،وحَجَّه يحجُّه حَجًّا:غلبَه على حُجته.وفي الحديث: (فحج آدمُ موسى).واحتجَّ بالشيء:اتخذه حُجَّة"(17)،و"حاجَّ خصمه فحجَّه،وفلانٌ خصمه محجوج،وكانت بينهما مُحاجَّة ومُلاجَّة"(18)،و"كل من قصد شيئًا فقد حجَّه"(19)،ثم إن "الحُجَّة بالضم:البرهان.وعند النُّظَّار أعم منه لاختصاصه عندهم بيقين المقدمات. وما ثبت به الدعوى من حيث إفادته للبيان يسمى بينة.ومن حيث الغلبة به على الخصم يسمى حُجَّة.والمجادلة الباطلة قد تسمى حُجَّة كقوله تعالى:(حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ)(الشورى:16) إمَّا على حسبانهم ومساقهم،أو على أسلوب قولهم:تحيةُ بينهم ضربٌ وجمع"(20)

ولعل أشمل تعريف لغوي،وأجمعه،ما عند ابن منظور في لسان العرب،إذ يقول:"الحجُّ:القَصْد..وحَجَّه يحُجُّه حَجًّا:قَصَدَه..ثم تُعُورِفَ استعماله في القصد إلى مكة للنُّسُك والحج إلى البيت خاصَّة...يُقال:حاججتُه أُحاجُّه حِجَاجًا ومُحَاجَّة حتى حججتُه أي غلبتُه بالحُجَج التي أَدْلَيتُ بها...والحُجَّة:البُرهان،وقيل:الحُجَّة ما دُوفِع به الخصم،وقال الأزهري:الحُجَّة الوجه الذي يكون به الظَّفَر عند الخصومة.وهو رجلٌ مِحجاج أي جَدِلٌ.والتحاجُّ:التخاصُم..وحاجَّه مُحَاجَّةً وحِجَاجًا:نازَعَه الحُجَّة.وحَجَّه يَحُجُّه حَجًّا:غلبه على حُجَّتِه.وفي الحديث:فحجَّ آدمُ موسى أي غلبه بالحُجَّة.واحتجَّ بالشيء:اتخذه حُجَّة،قال الأزهري:إنما سُميت حُجَّة لأنها تُحَجُّ أي تُقصَد لأن القصد لها وإليها،وكذلك مَحَجَّة الطريق هي المَقْصِدُ والمسلَكُ.وفي حديث الدجَّال:إن يخرجْ وأنا فيكم فأنا حجيجه أي مُحاجُّه ومغالبه بإظهار الحُجَّة عليه"(21).

الحجاج اصطلاحًا:

يخلص د.محمد العبد–بعدما عرض تعريفات بضعة عشر من الدارسين الغربيين للحجاج–إلى أن الحجاج:"جنسٌ خاص من الخطاب،يبنى على قضـــية أو فرضـــية خلافية.يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات،عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطًا منطقيًّا،قاصدًا إلى إقناع الآخر بصدق دعواه والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية"(22).

ويوســـع باحث آخر نطاق الحجاج،مدخلاً عناصـــر ســـيميائية غير لغوية كذلك،بقوله إن الحجاج:"علم يدرس أشـكال ووسـائل التأثير في المتلقي التي تتم في إطار النص اللغوي أو في الإطار الســـيميائي العام بهدف الإقناع بفكرة ما،أو الدفاع عن فكرة ما،أو الهجوم على فكرة ما،للوصـــول إلى الاقتناع أو الإفحام"(23)

الحجاج في التراث العربي:

مما امتازت به آيات القرآن الكريم،أســلوب الحجاج،الذي يعتمد على تحفيز التفكير العقلي ويســتند إلى البرهان،ومقارعة الحجة بحجة أبلغ،والرأي برأي أقوى،على أقوال الجاحدين وأعداء الدعوة ممن يجادلون بالباطل(24).وبعض صـور الحجاج معروفة في تراثنا العربي الإسـلامي منذ أمد بعيد،ثم ازدهر واتسـع مجاله في العصر العباسي؛بسبب التأثر بالفلسفة والمنطق،وتطور علم الكلام،الذي كان لكثير من الكتاب والنقاد والشعراء إلمام به،وتأثر بالأفكار الأرسطية والاعتزالية(25)

وفي إطار البلاغة العربية،يرى بعض الباحثين أدوارًا حجاجية واضـــحة لحســـن التعليل،والمذهب الكلامي،والتشبيه الضمني والاستعارة(26)،وكان الحجاج والجدل مصطلحين مترادفين تقريبًا في التراث العربي الإســـلامي(27)،لكن الحجاج–في الواقع–أوســـع نطاقًا من الجدل من ناحيتين،أولاهما أنه من وسـائل الحجاج،ومن القوى المولدة له(28).والثانية أن للجدل أثر نظري،بينما الهدف من الحجاج الجمع بين التـأثير في وجهـة النظر(التـأثير الـذهني في المتلقي الـذي ينتهي بـه إلى الإذعـان)،والتـأثير في السلوك،ومن ثم فكل جدل حجاج،وليس كل حجاج جدلاً(29)

والفرق بين الاستدلال المنطقي والحجاج أن الاستدلال هو أن تستنبط من المقدمات نتائج،تُفضي إليها تلك المقدمات ضـــرورة بدون أي لبس،وليس الحجاج كذلك؛فالحقيقة في الحجاج ليســـت واحدة ولا ضـــرورية ولا مفارقة ومتعالية وموضـــوعية–كما في الاســـتدلال–وإنما هي نســـبية وذاتية إلى حد كبير،ومرتبطة بالمقام،ولا تكون إلا تحت أنظار جمهور كونيّ أو خاص(30)

ولا يوافق الباحث على هذا الفصـــل الجازم بينهما؛وآية ذلك أن النص الذي بين أيدينا يقارب الاستدلال المنطقي،لكن كفة الحجاج ترجح في النهاية،حتى إن ذلك الاستدلال نفسه يصير أداة حجاجية فاعلة في النهاية

أما عن الفرق بين الخطابة والحجاج،فيحدده الباحثون في أمرين:

أ–من جهة الجمهور:جمهور الخطابة حاضـــر مجتمع ليســـتمع للخطيب،بينما جمهور الحجاج قد يكون حاضرًا أو غائبًا،عامًّا أو خاصًّا،كما يمكن أن يكون بين شخصين متحاورين،أو بين المرء ونفسه.

ب–من جهة نوع الخطاب:الخطابة محصورة فيما هو شفوي،والحجاج يمكن أن يكون مكتوبًا كما يمكن أن يكون منطوقًا(31)

والنص محل الدراسة نص حجاجي لا خطابي،جمهوره عام،لم يقتصر على من حضر وقائع مضمونه أو رواية كعب–رضي الله عنه–لتلك الوقائع،وإنما حرص صاحبه على أن يبنيه بحيث يصلح لكل متلق بعدها.وكان النص شفويًّا منطوقًا فصار مكتوبًا مقروءًا،في زمن كعب–رضي الله عنه–أو بعده،في المدينة المنورة وغيرها.وهو بهذا جمهور عريض جدًّا من المسلمين الفاهمين للغة العربية،ولا شك في أن نجاح عملية الحجاج مع جمهورٍ هذه صفته مهمة صعبة،تقتضي مهارة حجاجية عالية.

ولم يغب عن النص أيضًا الحجاج بين متحاورين في عدد من المواضع،منها الآتي الذي كان بين الرسول–صلى الله عليه وسلم–وكعب–رضي الله عنه–:"فقلتُ:بَلَى،إِنِّي واللهِ لو جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ من أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ،ولَقَدْ أُعْطِيْتُ جَدَلاً،وَلَكِنِّي واللهِ،لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليومَ حدِيْثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي،لَيُوْشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ،ولَئِن حَدَّثْتُكَ حَدِيْثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيْه إِنِّي لَأَرْجُو فِيْهِ عَفْوَ اللهِ،لَا واللهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ،وَمَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى ولا أَيْسَرَ مِنِّي حَيْنَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ،فَقَالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ:أَمَّا هَذَا فَقَد صَدَقَ،فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيْكَ"

والحوار الحجاجي الذي كان بين كعب وقومه من بني سلمه:"فَقُمْتُ،وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بني سَلِمَة فَاتَّبَعُوني،فَقَالوا لِي:وَاللهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا،ولَقَدْ عَجَزْتَ أَلَّا تكونَ اعْتَذَرْتَ إلى رسول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ المُتَخَلِّفُونَ،قَدْ كانَ كَافِيْكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ لَكَ،فَوَاللهِ مَا زَالوا يُؤَنِبُونَنِي حتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي"

وكان الحجاج بين المرء ونفسه حاضرًا أيضًا،غير أنه وُظِّفَ لخدمة الحجاج الكلي الموجه إلى الجمهور العام،يقول كعب:"فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّه تَوَجَّه قافِلاً،حَضَرَنِي هَمِّي،وطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الكَذِبَ،وأَقُولُ:بماذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِه غدًا؟! واستعنتُ على ذلكَ بكُلِّ ذِي رأيٍ مِنْ أَهْلِي،فلمَّا قِيلَ:إنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ قدْ أَظَلَّ قادِمًا،زَاحَ عَنِّي الباطلُ،وعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنه أبَدًا بِشَيءٍ فيه كَذَبٌ،فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ".ولئن كان كعب في شعره تقليديًّا،من حيث الموضوع والوزن والصور والأخيلة،اللهم إلا في ربطه هذا كله بالدعوة الإسلامية(32)،فإنه في حديثه هذا وقصته هذه أتى بكل بديع من الحجاج

المبحث الثاني:مقدمات الحجاج ومسلَّماته

يُبنى الحجاج على مقدمات أو مسلمات،يعرضها المحاجج ليتخذها منطلقًا لإقناع جمهوره،أي أنها نقطة انطلاق الاستدلال،ويحددها بيرلمان وتيتكاه بست،هي:الوقائع،والحقائق،والافتراضات،والقيم،والتراتبيات(هرمية القيم)،والمعاني أو المواضع(33) والمقدمات على اختلاف أنواعها تمثل منطلقًا للمحاجة،يعتمد على الحس المشترك الذي لمجموعة لسانية معينة؛إذ هو جماع معتقداتها ومناط موافقاتها.وتسمَّى المحاجَّة في هذه الحال:المحاجة الموجهة للإنسان عامة(34)،ويمكن أن نعرض للموجود منها في قصة كعب كالآتي:

1-الوقائع:

يُقْصَـد بالوقائع ما كان مشـتركًا بين عدد من الناس،أو بين الناس جميعًا،فلا سـبيل لدحضـه أو التشكيك فيه،وهي ضربان:إما وقائع معاينة مشاهدة،وإما وقائع مفترضة(35).ومن الوهلة الأولى يتضح أن كعبًا-رضـي الله عنه-لا يسـوق كلامه على سـجيته،بل يتبنى اسـتراتيجية محددة،تعمدها،وخطط لها بعناية،في إطار حجاجي واضـــح. والحجاج يندرج تحت إحدى الاســـتراتيجيات التداولية الكبرى،وهي استراتيجية الإقناع(36)

وأولى الوقائع التي يستهل بها كعب-رضي الله عنه-كلامه،أنه "لم يتخلف عن الرسول-صلى الله عليه وسلم-في غزوة غزاها"،وهذه بداية حجاجية موفقة؛إذ هذا مما هو مشاهد معلوم،وبتذكير السامع به يحتل كعب-رضي الله عنه-مساحة مهمة من ميدان الحجاج،ويضع لبنة مهمة سيبني عليها حجاجه كله.لكن هذا مهَدَّدٌ بوقعتين مهمتين:تخلفه عن تبوك،وتخلفه قبلها عن بدر ،وكلتاهما من المعارك المفصلية المهمة في السيرة النبوية؛لأن تبوك آخر غزوات الرسول الكريم،وبدر أولاها.لكن غزوة تبوك هي مدار الحديث هنا،فلمَ يُضعِف كعب موقفه بذكر تقصيرٍ آخر له في غزوة أخرى أشد أهمية؟ ألم يك يكفيه الدفاع عن موقفه من تبوك؟

ولا شك في أن نجاح العملية التخاطبية- إنتاجًا وتأويلاً – يتضاعف كلما تزايدت المعرفة المشتركة بين منتج الخطاب ومتلقيه،لاسيما إذا أحسن المتكلم توظيف الاستراتيجية المناسبة للمقام(37)

وهو ما نجح فيه كعب-رضي الله عنه-في مقدمة كلامه،حين حرص على تزويد السامع/القارئ بأكبر قدر من المعلومات عن السياق العام للقضية المطروحة،كما رتب المعلومات ترتيبًا يخدم موقفه؛فبدأ -على غير المتوقع-بأدلة ضده،تكاد تكون أدلة إدانة،فقال إنه:

أ-لم يك قط أقوى ولا أيسر حين تخلف عن غزوة تبوك.

ب-وما اجتمعت عنده راحلتان قط حتى جمعهما في تلك الغزوة

جـ-وكان الرسول يُوَرِّي في كل غزوة يغزوها إلا في هذه الغزوة التي بين للناس فيها وجهته ومقصده حتى إذا ساق ما كان بعد ذلك،كان أشد إقناعًا،وأبقى أثرًا من الناحية الحجاجية.

2-الحقائق:

وهي تقوم على الربط بين الوقائع،ومدارها على نظريات علمية،أو مفاهيم فلســـفية أو دينية،وقد يضـيف الخطيب التيقن من الواقعة (أ) إلى النظرية(س)،لإنشـاء التيقن من (ب).ومعنى هذا أن التسـليم بالواقعة(أ) وبالنظرية(س) يعني التسليم بـ(ب)(38)

والواقعة الجزئية(أ) في قصـــة كعب-رضـــي الله عنه-يمثلها تخلفه عن غزوة تبوك،كما تخلف عنها صـحابيان جليلان آخران،هما هلال بن أمية ومرارة بن الربيع.والنظرية(س):قد يتخلف عن الغزو من هو مشهودٌ له بالصدق والإيمان.أما القضية(ب)/الرأي الذي يريد كعب حمل السامعين عليه،فهي أنه صادق الإيمان على الرغم من تخلفه عن غزوة تبوك.

والصدق–في مقابل الكذب– هو القيمة الكبرى التي يدور حولها الحجاج في هذه القصة،والقضية الكبرى هي التي تناولتها الآيات المذكورة فيها من سورة التوبة،بل سورة التوبة كلها،قضية النفاق والمنافقين،بمعنى التظاهر بصدق الإيمان،مع الكذب فعلاً بإبطان الكفر.

وقد انتبه الباحثون في حياة كعب وشعره إلى أن الصدق عند كعب بن مالك –رضي الله عنه– لم يكن مسلكًا عامًّا له في شعره–في ألفاظه وصوره وعاطفته–وحسب،بل هو منهج حياة عنده،يخالط دمه ولحمه،ويسري في قوله وفعله(39).وذكر الصدق شائع في ديوانه(40)،بل إن ابن القيم يربط حتى بين إحساس كعب بتنكر الأرض له ولصاحبيه،وقضية الصدق،قائلاً إن هذا الإحساس:"من أدلة صدق النبوة الذوقية التي لا تتطرق إليها الاحتمالات،وهذا كمن أخبرك أن في هذه الطريق من المعاطب والمخاوف كيت وكيت على التفصيل،فخالفته وسلكتها،فرأيتُ عين ما أخبرك به،فإنك تشهد صدقه في نفس خلافك له،وأما إذا سلكت طريق الأمن وحدها ولم تجد من تلك المخاوف شيئًا،فإنه وإن شهد صدق المخبر بما ناله من الخير والظفر مفصلاً،فإن علمك بتلك يكون مجملاً"(41).ويقول عن مكاتبة ملك غسان لكعب:"وفي مكاتبة ملك غسان له بالمصير إليه ابتلاء من الله تعالى،وامتحان لإيمانه ومحبته لله ورسوله،وإظهار للصحابة أنه ليس ممن ضعف إيمانه بهجر النبي–صلى الله عليه وسلم– والمسلمين له،ولا هو ممن تحمله الرغبة في الجاه والملم مع هجران الرسول والمؤمنين له على مفارقة دينه،فهذا فيه من تبرئة الله له من النفاق،وإظهار قوة إيمانه،وصدقه لرسوله وللمسلمين..وهذا البلاء يُظهر لب الرجل وسره،وما ينطوي عليه؛فهو كالكير الذي يخرج الخبيث من الطيب"(42).ثم يقول مؤكدًا محورية الصدق في حياة المسلم:"وقد قسم سبحانه الخلق إلى قسمين:سعداء وأشقياء،فجعل السعداء هم أهل الصدق والتصديق،والأشقياء هم أهل الكذب والتكذيب،وهو تقسيم حاصر مطرد،منعكس؛فالسعادة دائرة مع الصدق والتصديق،والشقاوة دائرة مع الكذب والتكذيب...والله سبحانه أنجى الثلاثة بصدقهم،وأهلك غيرهم من المخلفين بكذبهم،فما أنعم الله على عبدٍ بعد الإسلام بنعمة أفضل من الصدق الذي هو غذاء الإسلام وحياته،ولا ابتلاه ببلية أعظم من الكذب الذي هو مرض الإسلام وفساده"(43)

3–الافتراضات:

وهي تحظي بالموافقة العامة،وتتحدد بالقياس إلى العادي أو المحتمل،ولما كان هذا العادي وهذا المحتمل متغيرين بتغير الحالات والظروف،ويتفاوتان بتفاوت جماعات البشر ومجالات الحياة،كانت الافتراضات نسبية،ولم يكن الإذعان لها قويًّا إلا في وجود معينات أخرى داخل السياق الحجاجي(44)

وفي هذا السياق،نجد في النص الذي بين أيدينا دعوى،هي أن غزوة بَدر أهم من غزوة تبوك،وبيعة العقبة أهم من غزوة بدر.إذن:شهود بيعة العقبة يغفر الغياب في غزوتي بدر وتبوك.وتبرير الدعوى: لم يُعاتَب أحدٌ على التخلف عن غزوة بدر،إنما خرج الرسول–صلى الله عليه وسلم–يريد عِيْرَ قريش،حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد.ومما فضلت به بيعة العقبة بدرًا أنها كانت في بادئ الأمر،والمسلمون مضطهدون يخافون أن يطَّلِعَ أهل الكفر على أمرهم ،فتسللوا خفية، مخاطرين بأنفسهم ليبايعوا الرسول– صلى الله عليه وسلم– على النُّصرة ليلة العقبة(45).وقد دعَّم كعب–رضي الله عنه–هذا الافتراض بما

يكفل إذعان القارئ من المدعمات الحجاجية اللغوية،التي يأتي الحديث عنها فيما يأتي من هذا البحث بإذن الله.

4-القيم:

وعلى القيم مدار الحجاج بأشكاله كافة،وعليها المعوَّل في دفع السامع إلى أن يذعن لما يُطرح عليه من آراء.وهي نوعان:إمَّا قيم مجرَّدة،كالحق والعدل والصدق،وإما قيم ملموسة،كالوطن(46).وههنا القيم مجردة،هي صدق الإيمان،والنصح لله ورسوله،في مقابل النفاق والتخاذل عن نصرتهما بالتثاقل عن الجهاد في غزوة شقَّ على المسلمين ما وجدوا فيها(غَزَاها رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ في حَرٍّ شديدٍ،واستقبلَ سَفَرًا بعيدًا وَمفَازًا وعدوًّا كثيرًا...حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ والظِّلالُ).

5-التراتبيات(الهرميات):

ليست القيم مطلقة،يستقل كل منها عن غيره،وإنما هي مرتبة في درجات-من الجمال أو النفع...إلخ-ثم إن هذه التراتبيات الهرمية نوعان:مجردة،كعدَّ العادل خيرًا من النافع،ومادية محسوسة،كالقول بأفضلية الإنسان على الحيوان.وهرمية القيم وتراتبها في البنية الحجاجية أهم من القيم ذاتها؛لأن درجة التسليم بتلك القيم تختلف من جمهور لجمهور،وما يميز جمهورًا عن جمهور ليس تسليمه بالقيم في ذاتها،وإنما ترتيبه إياها حسب أهميتها بالنسبة له(47)

ومثال هذا من قصة كعب،فيما يخص القيم المجردة أن قيمة الصدق،والإخلاص للدعوة،والنصح لله ورسوله،أهم من قيمة الجهاد في سبيل الله.أما فيما يتعلق بالقيم المادية،فمنها أن شهود بيعة العقبة أهم من شهود غزوتي بدر وتبوك؛من منطلق أن توثيق عُرى الإسلام أهم من استكمال بناء صرحه،يقول كعب: "ولقد شهدتُ مع رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ليلةَ العقبةِ حين تواثقْنَا على الإسلامِ،وما أُحِبُّ أن لي بها مشهدَ بدرٍ،وإنْ كانت بدرٌ أذكَرَ في الناس منها"،ومن هذه العبارة نخرج بتراتب ثالث للقيم،هو أن الفعل ذا الأثر الأبقى أهم من الفعل الأشهر بين الناس.

ومعلوم أن مرحلة تأليف الحجج(إعدادها) تسبق مرحلة ثم ترتيبها،وكانت تلك المرحلة في ذهن كعب-رضي الله عنه-والنبي-صلى الله عليه وسلم-في تبوك،ثم كان هدمها وإعادة بنائها وترتيبها حين علم بانطلاق الرسول-صلى الله عليه وسلم-قافلاً من تبوك،بمعنى أنه غيَّر الاستراتيجية والسلالم الحجاجية والقضايا،بما يتناسب مع غاياته الجديدة.

6-المعاني أوالمواضع:

وهي مقدمات أعم من القيم،وتنقسم إلى مواضع مشتركة،يمكن تطبيقها على علوم متنوعة،كالقانون والسياسة والفيزياء.ومواضع خاصة تكون وقفًا على علم بعينه.كما أن المواضع تحدد خصائص الجماعات الفكرية والأدبية والأمم،ومثال ذلك:أن أفضلية ما هو ثابت وباقٍ موضع كلاسيكي،وفي مقابل هذا أفضلية الزائل موضع رومنطيقي(48)

ومن أنواع المواضع:

أ-مواضع الكمّ(49):

بمعنى أن الأكثر خير من الأقل،كما في المال؛فالمال الوفير تُقْضَـــى به حاجات أكثر ،والعكس بالعكس.والكل خير من الجزء؛لأنه أكبر منه.والديمقراطية أفضـــل؛لأنها رأي الأغلبية.ويرى أرســـطو أن العدل والعقل أفضـل من الشـجاعة؛لأن العدل والعفة نافعين دائمًا،في حين لا تصـلح الشـجاعة إلا في أوقات معينة.ومثال هذا من قصـــة كعب:أن الصـــدق أفضـــل من الشـــجاعة .ومثال آخر:أنه ما تخلف كعب-رضي الله عنه- عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-في غزوة غزاها إلا تبوك،أما بدر فلم يُعاتب الرسول أحدًا تخلف عنها،ومن ثم -وبمقياس الكم-لم يرتكب كعب ما يستحق أن يُعيَّر به.

ب-مواضع الكيف(50):

وهي ضد مواضع الكم،وتستمد قوتها من وحدانيتها وتفردها،مثل الحقيقة في قول الله-عز وجل- في مقابل آراء البشر،وكالحق الذي يعلو ولا يُعلى عليه مهما كان عدد خصومه.ومثالها من قصة كعب- رضي الله عنه-:أن الذين اعتذروا بالكذب على الرسول كانوا بضعة وثمانين رجلاً،بينما كعب وصاحباه صـــدقوا وهم ثلاثة. وما زال بنو ســـلمة بكعب حتى كاد يذعن لموضـــع الكم على حســـاب موضـــع الكيف،وكاد أن يعود فيكذِّب نفسه،لكنه ثبت في النهايةمرجحًا الكون مع القلة الصالحة،وقد عبَّر عن هذا بقوله:(هَلْ لَقِيَ هذا مَعِيَ أَحَدٌ؟قَالوا:نَعَم،رَجُلانِ قَالا ما قُلْتَ،فَقِيْلَ لَهُمَا مثلُ مَا قِيْلَ لَكَ،فَقُلْتُ:مَنْ هُمَا؟ قَالوا:مُرَارَةُ بنُ الرَّبِيْعُ العَمْرِيّ،وهِلالُ بن أُمَيَّةَ الوَاقِفِيّ،فَذَكروا لِي رَجُلَينِ صَـــالِحَيْنِ قَدْ شَـــهِدَا بَدْرًا،فِيْهِمَا أُسْوَة،فَمَضَيْتُ حِيْنَ ذَكَرُوهُما لِي)(51)

جـ-مواضع الترتيب(52):

كعدِّ الســـابق من المبادئ والقوانين أفضـــل من اللاحق،أي:من الوقائع التي تنتج عن تطبيق تلك المبادئ.وهذا واضـــح من اعتزاز كعب-رضـــي الله عنه-بشـــهوده بيعة العقبة،وتفضـــيله إياها على غزوة بدر ،وإن كانت بدرُ أشهر في الناس؛وكأنه يريد أن يقول إن تأسيس كيان الدولة الإسلامية أهم من تدعيم كيانها؛لأنه أساس لكل ما جاء بعده.

د-مواضع الموجود(53):

أي:تفضيل الموجود والراهن والواقع على المحتمل والممكن أو غير الممكن،وفق مبدأ:"عصفور في اليد خيرٌ من عشـرة على الشـجرة".ولا يجد الباحث هذا في قصـة كعب،إلا أن يُقَال إن حكايته هذه كانت بعد انقضاء أمر غزوة تبوك التي تخلف عنها،وكان ما كان فعلاً،وأن السياق سياقُ تبريرٍ لما حدث،لا ما كان من المفترض أن يحدث.

اختيار المعطيات(المقدمات) وجعلها حجاجية:

ولا يكفي أن تكون للخطيب مقدمات؛فلابد من الاختيار،اختيار ما هو مناســـب منها على أســـاس نوعية الجمهور المتلقي للحجاج.وأهم المهم في هذا الصـــدد وســـيلة الحضـــور،بمعنى اســـتحضـــار العنصـــر المنتقى للمحاجة،وجعله ماثلاً أمام أعين المخاطَبين وفي أذهانهم؛حتى يؤثر فيهم تأثيرًا وجدانيًّا مباشرًا(54)

وقد نجح كعب بن مالك في هذا بالفعل،كما سيتضح في المبحث الآتي:

المبحث الثالث:وسائل الحجاج في قصة كعب

أولاً-الحجاج اللغوي:

1-الحجاج على مستوى الكلمة:

"المقتضى الدلالي يمثل معينًا لا ينضب من الطاقة الحجاجية في الوصف،ويظل نجاح مفعوله الإقناعي مرتبطًا بشرطين على الأقل:يتصل أولهما بكفاءات المخاطَب اللسانية والموسوعية والتأويلية.فإذا لم يدرك المخاطَب المعاني المضمرة،وارتكب خطأ في الحساب التأويلي فإن المقتضى الدلالي سيبدو كأنه عقبة قد تؤدي إلى الفشل.ويتصل ثانيهما بسوء النية في التأويل؛فقد يبني المخاطَب عمدًا تأويله على الملفوظ الذي لم يقصده المخاطِب فيصل إلى مضمر زائف"(55).وقد استعمل كعب-رضي الله عنه-الكلمات في النص بدقة،واستثمر ظلالها الدلالية بما يخدم غاياته الحجاجية،ومن ذلك ما يأتي:

ليلة:كلمة"ليلة"لها وجود بارز في النص،بدلاً من كلمة"يوم"،ودلالة الليل على الهم والحزن غير خافية،بينما"اليوم"ذو معنى محايد،إن لم يكن دالاً على البشر والسرور،ومن هذا:"ليلةَ العقبةِ"-"فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً"-"حَتَّى إِذَا مَضَى أَرْبَعُونَ ليلةً مِنَ الخَمْسِينَ"-"فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ،حتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمسُونَ لَيْلَةً"-"فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلاةَ الفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً"-"أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ".

فخررتُ ساجدًا:لم يقل:(سجدتُ)؛ليدل على شدة السرعة مع الإيحاء بالتأثر النفسي،يقول ابن فارس:"والخاء والراء أصلٌ واحد،وهو اضطرابٌ وسقوطٌ مع صوت"(56)

أنخلعُ:دليلٌ على مزايلته ذلك الذي كان يملكه من المال،ومفارقته تمامًا،يقول ابن فارس:"الخاء واللام والعين أصلٌ واحد مطَّرِد،وهو مزايلة الشيء الذي كان يُشْتَمَل به أو عليه"(57)

أصْعَرُ:يقول محمود شاكر:"أي:أميل،على وزن أفعل التفضيل،وأصله من الصَّعَر-بفتحتين-وهو ميل في الوجه،كأنه يلتفت إليه شوقًا"(58)

فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ:يقول محمود شاكر:"أي:عزمتُ على ذلك كل العزم"(59)

فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورُ فَسَجَرْتُه بِهَا:يقول ابن القيم معلقًا على كلمة"تيممتُ"هنا:"وقوله:فتيممت بالصحيفة التنور،فيه المبادرة إلى إتلاف ما يُخشَى منه الفساد والمضرة في الدين،وأن الحازم لا ينتظر به ولا يؤخره،وهذا كالعصير إذا تخمَّر،وكالكتاب الذي يُخشى منه الضرر والشر،فالحزمُ المبادرةُ إلى إتلافه وإعدامه"(60).ويقول محمود شاكر: "سجر التنور:أوقده وأحماه وأشبع وقوده،وأراد أنه زاد التنور التهابًا،بإلقائه الصحيفة في ناره.وهذا كلام معجِب،أراد به أن يسخر من رسالة ملك غسان إليه"(61)

"وكانت غسان إذ ذاك-وهم ملوك عرب الشام-حَربًا لرسول الله-صلى الله عليه وسلم-وكانوا يُنْعِلُون خيولهم لمحاربته،وكان هذا لما بعث شجاعَ بن وهب الأسدي إلى ملكهم الحارث بن أبي شمر الغساني يدعوه إلى الإسلام.وكتب معه إليه...فقرأه ثم رمى به،قال:من ينتزع مني ملكي،وقال:أنا سائر إليه،ولو كان باليمن جئته،عليَّ بالناس،فلم تزل تُعرض حتى قام،وأمر بالخيول تُنعل،ثم قال:أخبر صاحبك بما ترى،وكتب إلى قيصر يخبره خبري،وما عزم عليه،فكتب إليه قيصر:أن لا تَسِرْ،ولا تعبر إليه،والهُ

عنه...ومات الحارث بن أبي شمر عام الفتح،ففي هذه المدة أرسل ملك غسان يدعو كعبًا إلى اللحاق به،فأبت له سابقة الحسنى أن يرغب عن رسول الله–صلى الله عليه وسلم– ودينه"(62)

ومن المعروف المشهور أن الفعل المضارع يدل على التجدد والاستمرار (63)،وأنه لهذا يفيد استحضار الصورة عند التعبير به عما حدث في الماضي؛ولهذا تبريره النفسي في قصة كعب،هو أن مواقف بعينها من القصة لا تبرح خياله؛لأنها أثرت في نفسه أعمق وأشد من غيرها.ومن هذا في النص:"فَيَرْكَعُ فيه رَكْعَتَينِ"–"فَطَفِقُوا يَعْتَذِرونَ إِلَيْهِ وَيَحلِفُونَ لهُ"–"فجِئْتُ أَمْشِي حتى جلستُ بينَ يديهِ"–"فَوَاللهِ مَا زَالوا يُؤَنِبُونَنِي"–"فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ المُسْلِمِيْنَ،وَكُنْتُ أَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحدٌ،وآتِي رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وهُو في مَجْلِسِه بَعْدَ الصَّلَاةِ،فَأَقُولُ فِي نَفْسِي:هَل حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ علَيَّ أَمْ لا؟ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيْبًا منه،فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ،فإذا أَقْبَلْتُ على صَلاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ"–"أَنْشُدُكَ بِاللهِ،هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ ورَسُوْلَه؟"–"فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرونَ لهُ"–"وانْطَلَقْتُ إلى رَسُولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ،فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوجًا فَوجًا،يُهَنِّئُنِي بِالتَّوبَةِ،يَقُولُونَ:لِتَهْنِكَ تَوبَةُ اللهِ عليكَ،قَال كعبُ:حتَّى دَخَلتُ المسجِدَ،فَإِذَا رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ جَالِسٌ حولَهُ النَّاسُ،فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ حتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي،واللهِ ما قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ،ولَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ،قَالَ كَعْبٌ:فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ،قَالَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُه مِنَ السُّرُورِ:أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ"

2–الحجاج اللغوي على مستوى الجملة:

الوصف:

للخطاب الوصفي منحى بلاغي منذ القدم،بدأ مع السوفسطائيين(64)؛لأن لتحديد المظاهر(الوصف)مفعول إقناعي ذو وجهين:يتمثل أولهما في زيادة درجة حضور الموصوف في الواجهة الأمامية من وعي الموصوف له،ويتمثل الوجه الثاني في إحداث الانفعال في وجدان الموصوف له(65) والبلاغيون يذكرون أن الوصف يأتي للتعميم،أو التخصيص،أو التوضيح،أو المدح ،أو الذم،أو للتأكيد(66).وقد وَظَّف كعب–رضي الله عنه–التركيب الوصفي في كلامه فأجاد التوظيف،ومن هذا:

للتخصيص:"مَا يقُولُ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ إِذَا اسْتَأْذَنْتُه فيها وأَنَا رَجُلٌ **شَابٌ**؟"؛فالشاب حاجته لامرأته أشد–"وَسَعَى سَاعٍ **مِنْ أَسْلَمَ**"،كأنه يريد أن يقول إنه يذكر هذا الجميل لذلك الرجل المعروف؛بدليل أنه يذكره تحديدًا ويذكر من أية قبيلة هو–"فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ حتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي،واللهِ ما قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ **مِنَ المُهَاجِرِينَ** غَيْرُهُ"،بما يدل على أنه كان يعنيه جدًّا أن يقوم لتهنئته واحد من المهاجرين؛لأن الأنصار في النهاية أهله وقومه،وقيامهم لتهنئته أمر مفروغ منه.

وللتوضيح:"والمسلمونَ مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ كثيرٌ،ولا يجمعُهُمْ كِتابٌ **حافظٌ**–يريدُ الدَّيوانَ–"؛كيلا يُظَنَّ أن الكلام عن مطلق الكتب(67)

–"إنَّ هِلالَ بنَ أُمَيَّةَ شَيخٌ **ضَائِعٌ،لَيْسَ له خَادِمٌ**"؛فربما كان الشيخ متماسكًا يستطيع أن يخدم نفسه،وليس هلال بن أمية كذلك،ولا له خادم يعينه؛فالأمر يستدعي وجود امرأته جنبه لتخدمه

وللمدح:"فَذَكروا لِي رَجُلَينِ **صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا**"،ولا شك في أن من كان بهذه الصفة أهلٌ لأن يُتَّخَذ أسوة وقدوة.

وللذم:"فكُنْتُ إذا خَرَجْتُ في النَّاسِ بعدَ خُروج رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فَطُفْتُ فيهم،أَحْزَنَني أَنِّي لا أَرَى إلاَّ رَجُلاً **مَغْمُوصًا عليه النِّفَاقُ**،أوْ رَجُلاً **ممَّنْ عَذَرَ اللهُ مَنَ الضُّعَفَاءِ**"،ومن كانت هذه صفته يحزن من كان مثله.وكلمة"مغموصًا"بالذات تتضح كرهًا للنفاق؛فمعناها أنه متهم مطعون عليه في دينه،ومحتقر،ومتهم في عقيدته(68)

وللتأكيد:"كانتْ تلك الغزوة،غَزَاها رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ في حَرٍّ **شديدٍ**،واستقبلَ سَفَرًا **بعيدًا** وَمفَازًا وعدوًّا **كثيرًا**"–"إذَا نَبَطِيٌّ **مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّامِ**"؛كيلا يستبعد بعض السامعين أن يكون ذلك الرجل من أهل الشام لبُعدها،أو يظن أن كعبًا–رضي الله عنه–يقول إنه نبطي على سبيل المجاز

التكرار:

تكررت جملة"لم أقض شيئًا" أربع مرات في فقرة واحدة!،هي قول كعب–رضي الله عنه–:"وتَجَهَّزَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمسلمونَ معهُ،فَطَفِقْتُ أَغدو لِكَي أتجهَّزَ معهم،فأَرْجِعُ ولَمْ أَقْضِ شيئًا،فأَقُولُ في نَفْسِي:أنَ قادرٌ عَليه،فَلَم يَزَلْ يتمادَى بي حتَّى اشتدَّ بالناس الجدّ فَأَصْبَحَ الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمسلمون معه ولَم أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شيئًا،فقلتُ:أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بيومٍ أوْ يَومَينِ،ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ،فَغَدَوْتُ بَعدَ أنْ فَصَلُوا لأتَجَهَّزَ،فَرَجَعْتُ ولَمْ أَقْضِ شيئًا،ثُمَّ غَدَوْتُ،ثُمَّ رَجَعْتُ ولم أَقْضِ شيئًا"،وهذا يدل على ندمه على هذا،وأن هذه النقطة تحديدًا لا تبرح تؤلمه،وتكدر عليه صفوه،وإذا كان من المعلوم أن التأكيد يأتي لأغراض منها التذكير،والتنبيه،والتقرير لموقف ما في الأذهان(69).فلعل من الممكن أن نقول إن التكرار هنا كان–في المقابل–للتذكُّر،والتنبُّه،والإشارة إلى رسوخ موقف ما في ذهن المتكلم.

ثانيًا–الحجاج البلاغي:

"الوسائل البلاغية كلها مجتمعة رافد من روافد الحجاج،تسعى إلى بلوغ نفسية المتلقي على اختلاف مستوياتها وتوجهاتها الفكرية تأثيرًا وإقناعًا؛فهي كلها مبنية على اللغة،ومبنية على براهين صادقة مما يجعل نتائجها أيضًا حتمًا صادقة هي الأخرى"(70).وسيحاول الباحث استعراض أهم ما جاء من هذا في حديث قصة كعب،كالآتي:

1–الحجاج بالمعاني:

الإيجاز:الإيجاز موجود في حديث كعب،بصورتيه المشهورتين:

الإيجاز بالقِصَر:"فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ،وتَغَيَّروا لَنَا"،وترك للسامع مهمة تقدير صور ذلك التغير في معاملات الناس لهم.

والإيجاز بالحذف:"فَطَفِقُوا يَعْتَذِرونَ إِلَيْهِ وَيَحلِفُونَ لهُ"–"فقالَ لي:مَا خَلَّفَكَ؟"،أي:عن اللحاق بي في تبوك كعادتك في غيرها؟–"ثُمَّ قُلْتُ لَهُم:هَلْ لَقِيَ هذا مَعِيَ أَحَدٌ؟قَالوا:نَعَم،رَجُلانِ"،أي:لقيه رجلان.

وقلة مواضع الإيجاز في النص تسترعي الانتباه،خاصة أن المنتظر من شاعر قدير ككعب أن يكون الإيجاز غالبًا على كلامه شعرًا كان أم نثرًا.ولعل مرد هذه القلة هنا إلى أن الموقف موقف بسط العذر،وتفصيل البيان،لا الإيجاز.

الإطناب:

القاعدة العامة أن البلاغة الإيجاز،لكن هذا ليس مطردًا في كل حال،وإنما المقام ومقاصد المتكلم ودواعي كلامه هي التي تحدد اختياره ما بين الإيجاز والإطناب.وقد يكون الإطناب أقضى لحاجته،وأدق في التعبير عمَّ يتغيَّاه،لاسيما إذا كان الخطاب حجاجيًّا،يرمي صاحبه إلى التأثير العميق في المستمع،إلى درجة حمله على تغيير أفكاره وموقفه.وبلاغيونا يحددون للإطناب صورًا،منها في النص محل الدراسة:

التفصيل بعد الإجمال:

كالإجمال في:"فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا"،ثم التفصيل في:"وَقَعَدَا فِي بيُوتِهما يَبْكِيَانِ".والإجمال في:"وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ القَوْمِ وأَجْلَدَهم"،قبل التفصيل في:"فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ المُسْلِمِيْنَ،وَكُنْتُ أَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ"،وأفاد التفصيل بعد الإجمال في هذين المثالين المقابلة بين موقف كعب وصفاته،وموقف صاحبيه وصفاتهما،وهذا مفيد في حجاج الإيتوس كما سيأتي بإذن الله.

ثم الإجمال في:"فذهب الناس يبشروننا"،ثم التفصيل:"فذهب قِبَلَ صاحبيَّ مبشرون،وركض رجل فرسًا،وسعى ساعٍ من أسلمَ قبلي"،وفي التأكيد بهذه الطريقة بالذات دلالة واضحة على الفرح

والاعتراض:

"وهَمَمْتُ أنْ أرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُم،**وليتني فعلتُ!**فلمْ يُقَدَّرْ لي ذلك"،والاعتراض هنا للتمني–"وأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَادِمًا،**وكانَ إذا قَدِمَ مِنْ سَفَرِه،بَدَأَ بِالمَسْجِدِ،فَيَرْكَعُ فيه رَكْعَتَينِ،ثُمَّ جَلَسَ للنَّاسِ**،فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ المُخَلَّفُونَ"،وقيمة الاعتراض هنا في الحجاج أنه يوفر للمتلقي معلومات أكثر تفيد في استمالته وإقناعه بحجج المتكلم–"فَطَفِقُوا يَعْتَذِرونَ إِلَيْهِ وَيَحلِفُونَ لهُ،**وكانوا بِضْعَةً وثمانينَ رَجُلاً**،فَقَبِلَ منهم رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ عَلانِيتَهُم"،والعدد مهم في الحجاج هنا؛فهو من حجج الكيف ومواضعه كما مرّ آنفًا

والترادف:"فَقَبِلَ منهم رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ عَلانِيتَهُم،وبَايَعَهُم واستغفَرَ لهم،**وَوَكَلَ** سَرَائِرَهُم إلى اللهِ"– "تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِيَ الأرضُ،فما هِي التي أَعْرِفُ"،وفائدة الترادف تأكيد المعنى وتقريره في ذهن المتلقي.

والتكرار:الذي مضى الكلام عن أمثلة له

وهكذا راوح كعب–رضي الله عنه–في حجاجه في النص الراهن بين الإيجاز والإطناب،منتقيًا ما يلبي أغراضه من سَوْقِ الحديث.

2–الحجاج بالبيان:

"تتبني استراتيجية الحجاج التصويري على استثمار الباث المصنف لرصيد الطاقة التأويلية الكامنة في تعليق المحول المشبه به بالموضوع المشبه"(71)

التشبيه:

وللوصف بالتشبيه مفعول حجاجي مباشر،يتمثل في توريط المستمع،وإجباره على أن يواصل السير في سبيل الحجاج ،وصولاً إلى النتيجة بنفسه،فيقتنع بها اقتناعًا ذاتيًّا(72).ومن التشبيه في النص:"تبسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ"،وهو من التشبيه البليغ،المحمَّل بشحنة عاطفية كبيرة،تثريه وتزيد فاعليته في التأثير من ناحية،والتصوير لدقة موقف كعب،والتوتر الذي يعصف بكيانه في تلك اللحظة من ناحية أخرى.وفي المقابل نجد تشبيهًا آخر،محمل بشحنة عاطفية أخرى،في قوله:"وَكَانَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُه حتَّى كَأَنَّه قِطْعَةُ قَمَرٍ،وكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْه"؛فكما ارتاع كعب حين نظر إلى وجه النبي وهو مغضَب،هدأ واستكان وفرح،حين نظر إلى الوجه نفسه في حالة أخرى،وقد شبَّهه في الحالين فأجاد التشبيه.

الاستعارة:

تدخل الاستعارة في أساليب الحجاج،خاصة عند من قالوا إنها ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به ،وأنه لا يُستعار اللفظ مجردًا عن المعنى،ولكن يُستعار المعنى،ثم يكون اللفظ تبعًا له،كعبد القاهر الجرجاني(73)،والسكاكي(74)،بمعنى أن المشبه يدخل في المشبه به ويساويه في الصفة المشتركة(75).و"الحجاج بالتصوير يبلغ المحاجّ مقاصد شتَّى،منها حسم العناد"(76)

وكعب بارع في التصوير،يبدو هذا في قوله:"بماذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِه غدًا؟!"-"سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ"؛فها هو سخط الرسول يتجسَّد مطبقًا على كعب،آخذًا عليه أقطاره،وهو يبحث عن سبيل للخروج من هذا النطاق.وقوله:"إنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قدْ أَظَلَّ قادِمًا،زَاحَ عَنِّي الباطلُ"،يقول محمود شاكر:"أي:أقبل ودنا قدومه،كأنه ألقى على المدينة ظله"(77)،وهذا تعبير يصور هيبة الرسول-صلى الله عليه وسلم-وخشية كعب من لقائه،ثم:"وتَغَيَّروا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِيَ الأرضُ،فما هِي التي أَعْرِفُ"،يقول ابن القيم:"هذا التنكر يجده الخائف والحزين والمهموم في الأرض،وفي الشجر،والنبات حتى يجده فيمن لا يعلم حاله من الناس...وهذا سر من الله لا يخفى إلا على من هو ميت القلب،وعلى حسب حياة القلب يكون إدراك هذا التنكر والوحشة..ومن المعلوم أن هذا التنكر والوحشة كانا لأهل النفاق أعظم،ولكن لموت قلوبهم لم يكونوا يشعرون به.وهكذا القلب إذا استحكم مرضه،واشتد ألمه بالذنوب والإجرام،لم يجد هذه الوحشة والتنكر"(78)

المجاز المرسل:

كالذي في قول كعب:"أَلَمْ تكُنْ قد ابتَعْتَ ظَهْرَكَ؟"،يعني:الجمل الذي يحملك على ظهره إلى مقصدك. والمجاز المرسل يمتع النفس ويروق العقل؛ لأسباب على رأسها تأدية المعنى المقصود بإيجاز واختصار-والبلاغة الإيجاز-ثم البراعة في اختيار العلاقة بين طرفي المجاز، التي تؤدي إلى تصوير المعنى المقصود بدقة،وتضاعف تأثيره في النفس.

الكناية:

من أسرار جمال الكناية-ومن ثم من وظيفتها الحجاجية-الإتيان بالمعنى مصحوباً بالدليل، وفي هذا من التأكيد ما ليس في التصريح.وهي تحسُنُ في المواضع التي لا يحسن فيها التصريح،إما حياءً

وإما خوفاً،أو لسبب آخر وجيه.ويتأتَّى معها الإنكار،إن شاء مستعملها أن يتنصَّل مما قال.ثم إنها تغلِّفُ المعنى بنقاب شفيف يزيده بهاءً، وتزيد بهذا متعة السامع ،حين يُعمِلُ عقله للوصول إلى المقصود، فيبذل جهداً ويسلك مسلكاً إيجابياً تجاه الكلام ، فلا يغدو متلقياً سلبياً له،أي أنها تثير الذهن وتلفت الانتباه وتدفع الملل عن ذهن القارئ.وفيها مبالغة،والمبالغة تثير الانتباه وتؤكد المعنى في ذهن السامع.

ومن الكناية في النص:"وتَفَارَطَ الغَزْوُ"،كناية عن فوات الفرصة،وأن الجيش ابتعد عن المدينة كثيرًا-"حَبَسَهُ بُرْدَاهُ ونَظَرَه في عِطْفِه"،يقول محمود شاكر:"كناية عن إعجابه بنفسه،واختياله بحسن لباسه،والعِطْفان:الجانبان،فهو يتلفت من شدة خيلائه"(79)-"وضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ"،وهي كناية تجسد ما كان فيه كعب من ضيق وكرب-"رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ،فَقُلْتُ:أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذا أَفْعَلُ؟ قَال:لا،بَلِ اعْتَزِلْهَا ولا تَقْرَبْهَا"،واعتزال المرأة كناية عن الكف عن إقامة علاقة معها،لكن كعبًا-وهو الشاعر-يعلم أن الكناية تخلو من قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي،وهو حريص على طاعة الرسول إلى أبعد مدى؛ومن هنا كان سؤاله عن المقصود المأمور به بالضبط-"قَالَتْ:إِنَّهُ واللهِ ما به حركةٌ إلى شيءٍ"،وهي كناية تدخل في باب التأدب عند الكلام عما قد يُستحيا منه.

3- الحجاج بالبديع:

حين قال البلاغيون إن علم البديع ندرس فيه محسنات الكلام اللفظية والمعنوية،بعد مراعاة وضوح المعنى ومطابقة الكلام لمقتضى الحال،لم يغفلوا عن أن له دورًا مهمًّا في التأثير النفسي في المستمع،وتهيئته لتلقي الكلام من ناحية،ولتقبل وجهة نظر صاحبه من ناحية أخرى.ومن البديع في النص محل الدراسة:

الطباق والمقابلة:

في هذا النص مقابلة كلية على مستوى المواقف،تبرز المعنى وتوضحه،كما تفعل الطباقات والمقابلات الجزئية المعروفة في علم البديع.نجدها في موضعين:

1-موقف كعب وصاحبيه،حين صدقوا النبي-صلى الله عليه وسلم-في مقابل المعتذرين من المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك.

2-موقف كعب في خضم الأزمة النفسية والاجتماعية حين اعتزله الناس فلم يكلموه وصاحبيه بأمر الرسول-صلى الله عليه وسلم-فمكث صاحباه في بيتيهما يبكيان،وقاوم هو،فكان يمشي في الأسواق،ويخالط الناس،ثم ابتُلي- دون صاحبيه- برسول ورسالة من ملك غسان يدعوه إليه،فلم ير في تلك الرسالة إلا إغراء شيطانيًّا-ثم إن روايات أخرى تفيد بأن الرسالة كانت في سُرَقَة من حرير(80) -فلم يكن منه إلا أن أطعم النار كتاب الملك.مع أن كعبًا كان يعتز باجتماع قبيلته والغساسنة ملوك الشام في النسب،وكثيرًا ما ذكر هذا في شعره(81).ومن كانت هذه حاله،وكان هذا فعله كان على درجة عالية من الإيمان،وشدة المحبة لله ورسوله،وإلا فمن صار في حاله من الهجر والإعراض قد يضعف عن احتمال ذلك،وتحمله الرغبة في المال والجاه على هجران من هجره،ولاسيما مع أمنه من الملك الذي استدعاه إليه؛لأنه لا يكرهه على فراق دينه،لكن لما احتمل عنده أنه لا يأمن من الافتتان حسم المادة،وأحرق الكتاب،ومنع الجواب،وغلب عليه دينه،وقوي عنده يقينه(82)

حسن التعليل:

"وإنما دخل حســـنُ التعليل في باب الحجاج لما فيه من اختلاق العلة وادعائها،والتلطف بها حتى تكون مناســـبة،تلائم الوصـــف ملاءمة طريفة،وهو أمر يحتاج إلى رهافة في الحس،ودقة في النظر،ولا يدركه إلا من له تصرف في دقائق المعاني"(83)

ومما يدخل تحت حسن التعليل،أو يقاربه إن لم يكن منه،قول كعب–رضي الله عنه–في آخر النص:"وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولئِكَ الذِيْنَ قَبِلَ مِنْهُم رَسُولُ الله صـلَّى اللهُ عليه وسَـلَّمَ حِيْنَ حَلَفُوا لَه،فَبَايَعَهُمْ واسْـتَغْفَرَ لَهُمْ،وأَرْجَأَ رَسُـولُ الله صـلَّى اللهُ عليه وسَـلَّمَ أَمْرَنَا حتَّى قَضَـى اللهُ فِيْهِ،فَبِذَلِكَ قَالَ اللهُ:(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا)،وَلَيْسَ الذِيْ ذَكَرَ اللهُ ممَّا خُلِّفْنَا عَنِ الغَزْوِ،إِنَّمَا هو تَخْلِيْفُهُ إِيَّانَا،وإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ واعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ"،يقول ابن القيم:"قد فســـرها كعب بالصـــواب،وهو أنهم خُلِّفُوا من بين من خُلِّفَ لرســول الله–صــلى الله عليه وســلم–واعتذر من المتخلفين،فخلف هؤلاء الثلاثة عنهم،وأرجأ أمرهم دونهم،وليس ذلك تخلفهم عن الغزو؛لأنه لو أراد ذلك لقال:تخلفوا"(84)

ولا نجد في النص شـيئًا من الجناس ولا السـجع،على شـيوع هذين المحسـنين في سـائر كلام العرب.والملاحظ أن المحســـنات البديعية في النص الراهن قليلة بوجه عام،لاســـيما اللفظي منها؛لأن الصدق هو المحور ههنا،والمحسنات اللفظية كثيرًا ما ترتبط في الأذهان بالزخرف من القول،الذي يُراد به تجميل ما ليس جميلاً،وإضـــفاء القيمة على الزائف،وتصـــوير الباطل في صـــورة الحق(85).وقد أجمع كعب–رضـي الله عنه–على أن يسلك سبيل الصدق مع رسول الله،وأن يتنكب–عن عمد–سبيل الشعراء في الزخرف،وهو القادر عليه المتمكن من أدواته.

ثالثًا–وسائل حجاجية غير لفظية:

الصمت:

الصمت قسيم الكلام وضده،وبضدها تتبين الأشياء،فهناك حديث مسموع يسمى كلامًا،وآخر غير مسموع يسمى صمتًا،وهو من اللغة أيضًا،لكنه لغة بالقوة لا بالفعل،وليس أحدهما بأقل "لغوية"من الآخر–إن جاز هذا التعبير–والذي يحدد اسـتعمال أحدهما دون الآخر إنما هو"السـياق"،بمعنى أن"الصـمت في النص السردي هو قول غائب يلفت النظر بغيابه"؟(86)

والمقصـود بالصـمت هنا الصـمت البليغ the eloquent silenceالذي له وظائف دلالية جمالية أوفنية،لا الصـــمت المجرد الذي يخرج به صـــاحبه عن نطاق التواصـــل اللغوي،بل ذلك الصـــمت الاختياري،الذي يقصـد صـاحبه به إلى درجة مميزة من التواصـل اللغوي غير اللفظي،جنبًا إلى جنب مع التواصـل اللفظي،إضـافة إلى تدعيم التواصـل بين طرفي الخطاب بشـكل عام؛ذلك أن الصـمت في نموذج رومان جاكبســـون للتواصـــل–عام 1960م–علاقة لغوية، ودالة مرجعية،وطريقة بديعة للتعبير عن المشاعر في إطار الوظيفة العاطفية(87)

وللصمت في هذا الحديث دور حجاجي واضح،كالآتي:

أ–صمت الرسول–صلى الله عليه وسلم في أكثر من موضع من القصة:

"ولَمْ يَذْكُرْنِي رَسُول الله صَلَّى الله عليه وسلَّمَ حتَّى بَلَغ تبُوكَ،فَقَالَ وهو جَالِسٌ فِي القَوْمِ بتَبُوكَ:ما فَعَلَ كَعْبٌ؟فَقالَ رَجُلٌ مِن بني سَلَمَةَ:يا رَسُولَ اللهِ،حَبَسَهُ بُرْدَاهُ ونَظَرَه في عِطْفِه،فقال معاذُ بنُ جَبَلٍ:بِئسَ ما قُلْتَ،واللهِ يا رَسُولَ اللهِ ما عَلِمْنَا عليه إلا خَيرًا،فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمُ"-"فَجِئْتُه،فَلَمَّا سَلَّمْتُ عليه تبسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ،ثمَّ قالَ:تَعَالَ"-"وآتِي رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وهُو في مَجْلِسِه بَعْدَ الصَّلَاةِ،فَأَقُولُ فِي نَفْسِي:هَل حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ علَيَّ أَمْ لا؟ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيْبًا منه،فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ،فإذا أَقْبَلْتُ على صَلاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ،وإِذَا التَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي"

وقد لاحظ أحد الباحثين في الحجاج أن الصمت كان استراتيجية استعملها الرسول-صلى الله عليه وسلم- مرات عدة،وفسَّر هذا بأنها تقوي الارتباط بين السامع والمتكلم،وتشوق ذلك السامع لما سيأتي بعد فترة الصمت،وتحفزه لتركيز قواه الفكرية لفهمه واستيعابه(88)

ب-صمت أبي قتادة ابن عم كعب:

"حَتَّى إذا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ،مَشَيْتُ حتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ،وهو ابنُ عَمِّي وأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ،فَسَلَّمْتُ عليه،فَوَاللهِ ما رَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ،فَقُلْتُ:يا أَبَا قَتَادَةَ،أَنْشُدُكَ بِاللهِ،هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ ورَسُوْلَه؟فَسَكَتَ،فَعُدْتُ له فَنَشَدْتُه، فَسَكَتَ،فَعُدْتُ له فَنَشَدْتُه،فَقَالَ:اللهُ ورَسُولُه أَعْلَمُ،ففاضَتْ عَيْنَايَ ،وَتَوَلَّيْتُ حتَّى تَسَوَّرتُ الجِدَارَ"

جـ-صمت سائر المسلمين عقابًا لكعب ورفيقيه بأمر النبي:

"ونَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وسلَّمَ المُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثلاثَةُ مِنْ بينِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ،فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ،وتَغَيَّروا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِيَ الأرضُ،فما هِي التي أَعْرِفُ،فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً،فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بيُوتِهما يَبْكِيَانِ،وأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ القَوْمِ وأَجْلَدَهم،فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ المُسْلِمِيْنَ،وَكُنْتُ أَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحدٌ"-"نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّامِ ممَّن قَدِمَ بالطَّعَامِ يَبِيعُه بالمدينةِ،يقُولُ:مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بنِ مالك؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرونَ لهُ"؛مبالغة في هجر كعب والإعراض عنه،ومبالغة في تنفيذ أمر النبي بعدم الكلام معه!-"فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ،حتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِيْنَ نهَى رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَنْ كلامِنَا،فَلَمَّا صَلَيْتُ صَلاةَ الفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَأَنَا على ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بيوتِنَا،فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الحَالِ التي ذَكَرَ اللهُ،قدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي،وضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ،سَمِعَتُ صَوْتَ صَارِخٍ،أَوْفَى علَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ:يَا كَعْب بنَ مَالِكٍ،أَبْشِرْ،قَالَ:فَخَرَرْتُ سَاجِدًا،وعَرَفْتُ أَنْ قدْ جَاءَ فَرَجٌ"

د-امتناع كعب عن الرد على رسالة ملك الغساسنة:

"حتَّى إذا جَاءَنِي دَفَعَ لِي كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ،فَإذا فيْهِ:أَمَّا بعدُ؛فَإِنَّه قَد بَلَغَنِي أَنَّ صاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ،ولَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ ولا مَضْيَعَةٍ،فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ،فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا:وَهَذَا أَيْضًا مِنَ البَلاءِ،فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورُ فَسَجَرْتُه بِهَا"،وهو صمت الصمود في وجه المصائب،وقد ذهب ابن حجر إلى أن كعبًا أَنَّث الكتاب على معنى الصحيفة(89)

ويرى الباحث أن مخيلة كعب كانت مشغولة بالمصيبة-أو الفتنة-التي هو في غمارها؛بدليل قوله في رواية ابن أبي شيبة:"فقلت:إنا لله،قد طمع فيَّ أهل الكفر".

ومن هذه الأمثلة كلها،يبدو الصمت جزءًا أصيلاً من البناء الحجاجي للنص،كما نراه موظفًا توظيفًا سرديًّا دقيقًا،في تحريك الأحداث إلى الوجهة التي يتغياها السارد،ومحور وظيفته هنا أنه كان عقابًا شديدًا مؤلمًا للمخلفين،واشتمل هذا على دلالة مقابلة على صمود كعب–رضي الله عنه–وصبره وقوة إيمانه

لغة الجسد:

ربما نقول بالصمت والإيماءات والإشارات والنظرات أكثر مما نقول بالكلام ذاته(90).وكثيرًا ما تكون الإجابة بالصمت مع حركات الجسد أخصر وأبلغ من الإجابة اللفظية.لكن لابد من ضوابط لفهم الصمت السردي البليغ وتحليله نقديًّا،على رأسها السياق،والمصاحبات من الإيماءات ولغة الجسد،حتى إن بعض الباحثين يعرف الاتصال الصامت قائلاً إنه كل ما تحدثه لغة الجسد أو الأشياء أو الحال من تغييرات في السلوك أو المشاعر أو المعارف(91)

والإقبال بالوجه ذو دورٍ مهم في فهم القصد،وتبليغ المراد،وحصول التفاهم بين المتحاورين،وإعراض النبي–صلى الله عليه وسلم–عن كعب،وصرفه وجهه عنه يهدم هذا التفاهم،ويقطع هذا التواصل عقابًا له.وقد كان هذا العقاب مؤثرًا ومؤلمًا لكعب–رضي الله عنه–للغاية؛بدليل أنه يُبطئ السرد ليقف عند المشهد بالوصف الدقيق،فيقول:"وآتِي رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وهُو في مَجْلِسِه بَعْدَ الصَّلَاةِ،فَأَقُولُ فِي نَفْسِي:هَل حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ علَيَّ أَمْ لا؟ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيْبًا منه،فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ،فإذا أَقْبَلْتُ على صَلاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ،وإِذَا التَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي"

المبحث الرابع:آليات الحجاج في قصة كعب

إذا كانت الاستراتيجيات تعني الخطوط العامة التي يرسم المتكلم أطر كلامه خلالها،وأدوات الحجاج ما هو موجود فعلاً في المعجم اللغوي للنص،فالآليات هي الشكل الخطابي المختار.وليست اللغة مجرد وسيلة تواصل مهمتها التعبير عن الآراء والمشاعر ،وإنما هي أيضًا وسيلة للتأثير في العالم،ولتغيير سلوك المتلقين،بحيث تُستغل طاقات الكلام الكامنة.ومن آليات الحجاج في النص:

1–أفعال الكلام:

ويندرج تحتها ما يأتي:

أ–التوجيهات:

و من أهمها:

الاستفهام:إذ يوجه المتكلمُ المتلقيَ به نحو ضرورة الإجابة عنه،ويسيطر–من ثم–على مسارات عمل ذهنه،في اتجاه ما يريد؛إذ هو طلبٌ مجاله الإرادة،يريد به المتكلم من المخاطب أمرًا لم يستقر عنده.وما يتميز به هذا الحد من انبنائه على عناصر قولية ومقامية،أبرزها المتكلم والمخاطب،وحال كل من هذا وذاك من حيث استقرار الأمر المستفهم عنه أو عدم استقراره في علم كل منهما(92)

والأسئلة المغلقة من أهم الأدوات اللغوية في استراتيجية التوجيه هذه.وفي النص محل الدراسة اثنا عشر استفهامًا،هي على الترتيب:

" فَقَالَ وهو جَالِسٌ فِي القَوْمِ بتَبُوكَ:ما فَعَلَ كَعْبٌ؟"،وما سأل الرسول–صلى الله عليه وسلم–عن كعب خاصة إلا لقَدْره ومكانته عنده،بينما أهمل المنافقين ممن تألفوا،ولم يسأل عنهم لأنهم رجس،لا قدر

لهم(93).يقول ابن القيم:"ولم يذكر سواه من المخلَّفين استصلاحًا له،ومراعاةً،وإهمالاً للقوم المنافقين"(94)،وعند الرازي في تفسيره أن كعبًا قال:"كان رسول الله-صلى الله عليه وسلم-يحب حديثي،فلما أبطأتُ عنه في الخروج،قال-عليه الصلاة والسلام-:ما الذي حبس كعبًا؟"(95)

-"بماذا أخرجُ من سخطه غدًا؟!"وهو سؤال لنفسه،يدل على حيرته،وقلقه

-"ما خَلَّفَكَ؟ألم تكن قد ابتعتَ ظهرك؟!"،وهذان استفهامان أولهما للتوبيخ،والثاني للتقرير؛إذ من المعلوم أن دخول همزة الاستفهام على كلام منفي يعود فيه النفي إثباتًا(96).وكثيرًا ما تقابلنا في الحديث النبوي الشريف هذه الأسئلة الحوارية؛لأنها أشد إقناعًا للمرسل إليه(97)،لاسيما الاستفهام التقريري؛إذ له قوة حجاجية ظاهرة،ويعد من أقوى الأفعال اللغوية في العملية الحجاجية،وتكمن قوته في الاختلاف التداولي الحاصل بين المرسِل والمرسَل إليه(98).يقول ابن القيم:إن هذا من"معاتبة الإمام والمُطاعُ أصحابَه،ومن يعز عليه،ويُكرم عليه،فإنه عاتب الثلاثة دون سائر من تخلف عنه"(99)

ومن هذا النمط:"هل لقي هذا معي أحد؟"-"فقلت:من هما؟"-"فأقول في نفسي:هل حرَّكَ شفتيه برَدِّ السَّلام عليَّ أم لا؟"-"فقلتُ:يا أبا قتادة،أنشدك الله،هل تعلمني أحب الله ورسوله؟"-"من يدلُّ على كعب بن مالك؟"-"فقلتُ:أطلّقُها أم ماذا أفعل؟"-"فهل تكره أن أخدمه؟"-"وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجلُ شابٌ؟"-"أمِنْ عندك يا رسول الله أم من عند الله؟"

وثمانية أسئلة-أي ثلثا مجموع الأسئلة-يوجهها كعب،لنفسه،أو لغيره،وأحدها يوجهه للرسول في نهاية القصة،وهذا يندرج تحت بلاغة "الإيتوس"،بمعنى تصوير حال المتكلم وموقفه،حتى الأسئلة الثلاثة التي يوجهها لنفسه في القصة،تتحول بورودها في هذه القصة التي يحكيها هو إلى وسائل فعالة في هذا المجال،تدعمها خمسة أسئلة لغيره،وواحد يوجهه للنبي صلى الله عليه وسلم.في مقابل سؤال واحد يوجهه رسول ملك غسان للناس في السوق،حين يسأل عن كعب:أين هو؟وسؤال توجهه زوج هلال بن أمية للرسول،وسؤال من كعب لرسول رسول الله الآمر له باعتزال زوجه.وهذه الأسئلة الثلاثة الأخيرة لا تدخل في صميم الحجاج،لكنها تسهم في رسم الصورة الكلية للموقف.

التأكيد:(100)

"إنَّ للتوكيد بإنَّ وأنَّ مع لام التوكيد وبالقسم والقصر،له إلى جانب المفهوم الدلالي واللاقولي..دورٌ حجاجي،يتمثَّل في توجيه المقول والقول معًا.والمقصود بالمقول موضوع الكلام،وبالقول مدى حضور الذات القائلة في كلامها.إنَّ كلَّ وسائل التوكيد التي دخلت على القضايا محل النزاع بين القرآن وخصومه تفيد معنى"حققت كذا"،"الحق كذا"(101)

والغرض منه شيء من ثلاثة:

أ-أن يَحُول المتكلم به دون السامع والغفلة

ب-أن يدفع ظنه بالمتكلم الغلط

جـ-أن يدفع ظنه بالمتكلم التجوُّز(102)

القَسَم:

وهو من أبرز طرق التوكيد،وهو ضـــربان:قَسَـــمُ الطَّلَب،والغرض منه الإلحاح في الطلب،وحمل المخاطَب على فعلٍ أو تَرْك،وهو يندرج تحت قسم الأمريَّات من أقسام أفعال الكلام عند سيرل(103) وقَسَـمُ الإخبار،وهو ما قُصِـدَ به توكيد جوابه،وهو إخبارٌ عن شـــيء وقع وانقضـــى،ويندرج تحت قســم التقريريات عند سيرل(104)

وقد لاحظ أحد الباحثين أن القَسَم لا يكاد يأتي إلا في سـياق حجاجي،ورآه رابطًا نصـيًّا وحجاجيًّا في الوقت نفســه،لمكونات ما فوق مســتوى الجملة(105).ومن القســم في النص محل الدراســة:"والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قطُّ،حتى جمعتهما في تلك الغزوة"–"والله يا رســـول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا"–"إني والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا،لرأيتُ أن سأخرجُ من سَخَطِه بعُذر"–"ولكني والله،لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضـى به عني،ليوشكن الله أن يُسخطك عليّ"–"لا والله،ما كان لي من عُذْر،والله ما كنتُ قطُّ أقوى،ولا أيســرَ مني حين تخلفتُ عنك"–"والله ما علمناك كنت أذنبتَ ذنبًا قبل هذا"–"فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردتُ أن أرجع فأكذب نفسـي"–"فوالله ما ردَّ عليَّ السـلام"–"إنه والله ما به حركةٌ إلى شـــيء،والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا"–"والله لا أســـتأذن فيها رســـول الله"–"والله ما أملكُ غيرهما يومئذٍ"–"والله ما قام إليَّ رجلٌ من المهاجرين غيرَهُ"–"فوالله ما أنعمَ الله عليَّ من نعمة قطُّ بعد أن هداني للإسلام ،أعظمَ في نفسي من صدقي لرسول الله"

والملاحَظُ أن القســـم في النص أتى بلفظ الجلالـة وحـده،وفي هـذا تربيـة لمهـابـة الموقف في نفس السـامع.ويُلاحظ أيضًـا أن ذلك القَسَم يتتابع ويتتالى في مواضـع بعينها دون غيرها من القصـة،حسـب درجة التوكيد المطلوب.

القَصْر:

اثنا عشر موضعًا للقصر في النص محل الدراسة،وهذا عدد كبير لافت للنظر بلا شك.كالآتي:"لم أتخلَّفْ عن رسـولِ اللهِ صـلَّى الله عليه وسـلَّمَ في غزوةٍ غَزَاهَا إلا في غزوةِ تبوكَ"–"إنما خرج رسـول الله صلى الله عليه وسلم يريدُ عيرَ قريشٍ"–"فما رجلٌ يريدُ أن يتغيَّبَ إلا ظنَّ أن سيخفى له"–"أحزنني ألا أرى إلا رجلاً مغموصًـا عليه النفاق"–"ما علمنا عليه إلا خيرًا"–"واللهِ ما أَمْلِكُ غَيرَهُمَا يَومَئِذٍ"–"واللهِ ما قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ المـــُـــهَاجِرِينَ غَيْرَهُ"–"إِنَّ اللهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ"–"وإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ"–" إِنَّمَا هو تَخْلِيْفُهُ إِيَّانَا،وإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ"

ثم هناك موضعان للقصر بغير الطرق المتفق عليها في علم المعاني:

قصـر في صـورة أسـلوب الاختصـاص المعروف في النحو:"ونَهَى رَسُـولُ اللهِ صَـلَّى الله عَلَيْهِ وسَـلَّمَ المُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثلاثَةُ مِنْ بينِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ"،وقصر آخر،في قوله–صلى الله عليه وسلم–: "أَمَّا هَذَا فَقَد صَدَقَ"،يقول ابن القيم:"وهذا مما لا يشك السامع أن المتكلم قصد تخصيصه بالحكم"(106)

الأمر:

ومعظم الأمر في هذا الحديث جاء على أصـــل صـــيغته ومعناه،على جهة الطلب على وجه الاســـتعلاء،كما في:"تعالَ"-"فقُمْ حتى يقضـــي الله فيك"-"بل اعتزلْها،ولا تقربْها"-"الحقي بأهلك،فتكوني عنـدهم حتى يقضـــي الله في هـذا الأمر".ومنـه مـا خرج للأغراض البلاغيـة الأخرى المعروفـة للأمر،كالإغراء:"فالحقْ بنا نُواسِك"،والنصح والإرشاد:أمسِكْ عليك بعضَ مالك"،وتعجيل المسرَّة:"أَبْشِرْ"-"أَبْشِرْ بخير يومٍ مرَّ عليك منذ وَلَدَتْكَ أُمُّك".

والأمر هنا بصيغة الأمر،لكنه أتى بغيرها،في:"إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك"

الإغراء والتحذير:

الإغراء تنبيه المســـتمع إلى أمر محمود ليفعله،والتحذير تنبيهه إلى أمر مذموم ليجتنبه،وكلاهما من قِسْمِ (الأمريَّات) من أقسام الأفعال الكلامية عند سيرل(107).ومنه في الحديث:"فالحقْ بنا نُواسِك"-"وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بني سَـــلِمَة فَاتَّبَعُوني،فَقَالوا لِي:وَاللهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا،ولَقَدْ عَجَزْتَ أَلَّا تكونَ اعْتَذَرْتَ إلى رسول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ المـــُـــــتَخَلِّفُونَ،قَدْ كانَ كَافِيْكَ ذَنْبَكَ اسْـتِغْفَارُ رَسُـولِ اللهِ صَـلَّى اللهُ عليهِ وسَـلَّمَ لَكَ"- فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي:لَوِ اسْـتَأْذَنْتَ رَسُـولَ الله صـلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لامرأَةِ هِلالِ بنَ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ"

الاستغاثة والندبة:

وهما معنيان متفرعان عن النداء في تصور النحاة،وهما من (البوحيات) عند سيرل(108)،ولا وجود لهما في النص،وهذا يتفق وشخصية كعب الجَلْد ذي العزيمة،القادر على تجاوز المحن بصلابة.

المبحث الخامس:استراتيجيات الخطاب الحجاجي في قصة كعب

عناصـــر أية ممارســـة كلامية الكبرى ثلاثة،هي:المتكلم،أوالباث(الإيتوس عند دارســـي الحجاج)،والمخاطَب،أو المتلقي(وهو الباتوس عند أهل الحجاج)،وموضـوع الكلام،أو المرجع(أو اللوجوس عند الحجاجيين)(109)

الإيتوس:

الإيتوس أحد أركان الخطاب الحجاجي الثلاثة عند أرسطو،مع الباتوس واللوجوس(110).ولا يتفق دارســـو الحجاج على مفهوم محدد لـه،لكنـه يعني عندهم-إجمالاً-أخلاق الخطيب،أو صـــورتـه،أو سَـمْته،وربما عُبِّر بهذه الكلمة أيضًـــا عن لهجته أو نبرته(111).بمعنى:الصـــورة التي يرســـمها المتكلم لنفســـه،ويحرص على أن تصـــل إلى المخاطَبين.وأمامنا هنا ثلاث صـــور من هذا الإيتوس،هي:كعب نفسه:صفاته وخصائصه النفسية والبدنية،وكعب مدرك لأهمية إتقان رسم هذه الصورة للذات،وقد نجح في هذا،حين رأيناه -عبر كلمات النص وعباراته-مجاهدًا مع الرسـول بسـيفه في كل موطن:"لم أتخلَّفْ عن رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ في غزوةٍ غَزَاهَا إلا في غزوةِ تبوكَ"-"ولقد شهدتُ مع رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وســـلَّمَ ليلةَ العقبةِ حين تواثقْنَا على الإســـلامِ".وهو حريص على أن يشـــارك في غزوة تبوك لكنه تكاســل:"فَطَفَقْتُ أَغدو لِكَي أتجهَّزَ معهم،فأَرْجِعُ ولَمْ أَقْضِ شـيئًا،فأَقُولُ في نَفْسِـي:أنَا قادرٌ عَليه،فَلَم يَزَلْ يتمادَى بي حتَّى اشتدَّ بالناس الجدّ فَأَصْبَحَ الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمسلمون معه ولَم أَقْضِ مِنْ

جَهَازِي شيئًا،فقلتُ:أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بيومٍ أوْ يَومَينِ،ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ".وهو مسلم قلبًا وقالبًا صادق في إيمانه:"فكُنْتُ إذا خَرَجْتُ في النَّاسِ بعدَ خُروج رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فَطُفْتُ فيهم،أَحْزَنَني أَنِّي لا أَرَى إلاَّ رَجُلاً مَغْمُوصًا عليه النِّفَاقُ،أوْ رَجُلاً ممَّنْ عَذَرَ اللهُ مَن الضُّعَفَاءِ".ومن الصدق ألا يكذب:"وعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنه أبَدًا بِشَيءٍ فيه كَذَبٌ،فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ"

وهو شاعر مطبوع،يجيد صياغة العبارات والتأثير في السامع،ثم إنه أوتي مهارة في الحجاج والإقناع:"إنِّي واللهِ لو جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ من أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ،ولَقَدْ أُعْطِيْتُ جَدَلاً".

ثم هو–من الناحية البدنية– شاب قوي وذو عزيمة لا تلين:"وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ القَوْمِ وأَجْلَدَهم،فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ المُسْلِمِيْنَ،وَكُنْتُ أَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحدٌ"–"حَتَّى إذا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ،مَشَيْتُ حتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ،وهو ابنُ عَمِّي وأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ،فَسَلَّمْتُ عليه،فَوَاللهِ ما رَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ،فَقُلْتُ:يا أَبَا قَتَادَةَ،أَنْشُدُكَ بِاللهِ،هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ ورَسُوْلَه؟فَسَكَتَ،فَعُدْتُ له فَنَشَدْتُه، فَسَكَتَ،فَعُدْتُ له فَنَشَدْتُه،فَقَالَ:اللهُ ورَسُولُه أَعْلَمُ،ففاضَتْ عَيْنَايَ

فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا:وَهَذَا أَيْضًا مِنَ البَلاءِ،فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُه بِهَا،حَتَّى إذَا مَضَى أَرْبَعُونَ ليلةً مِنَ الخَمْسِينَ،إذا رَسُولُ رَسُولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ يَأْتِينِي،فَقَال:إنَّ رَسُولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ،فَقُلْتُ:أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذا أَفْعَلُ؟ قَال:لا،بَلِ اعْتَزِلْهَا ولا تَقْرَبْهَا،وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ،فَقُلْتُ لامْرَأَتِي:الْحَقِي بِأَهْلِكِ،فَتَكُونِي عِنْدَهُم حتَّى يَقْضِيَ اللهُ في هذا الأَمْرِ".حريصٌ علىأخذ نفسه بالعزيمة لا الرخصة:"فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي:لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لامرأَةِ هِلالِ بنَ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ،فقُلتُ:واللهِ لا أستأْذِنُ فيها رَسُولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ،ومَا يُدْرِينِي مَا يقُولُ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ إِذَا اسْتَأْذَنْتُه فيها وأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ؟"

وهو وفي،يعرف الجميل لصاحبه،ولا ينساه له:"حتَّى دَخَلتُ المسجِدَ،فَإِذَا رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ جَالِسٌ حولَهُ النَّاسُ،فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ حتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي،واللهِ ما قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ،ولَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ".وهو يحب الرسول الكريم بصدق،يقول:"كَانَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُه حتَّى كَأَنَّه قِطْعَةُ قَمَرٍ،وكُنَّ نَعْرِفُ ذَلِك مِنْه".

وواضح أنه عمد إلى انتقاء بعض خصائص نفسه ليصفها دون غيرها لتحقيق مقصده من تدعيم هذا الركن من أركان الحجاج.

ثم هناك ما يمكن أن نسميه"الإيتوس الأكبر"،يعني:الجماعة التي ينتمي إليها كعب–ومعلوم كيف كان العربي آنذاك بحقٍ جزءًا من كل هو قبيلته–وهي هنا بنو سَلِمَة،الذين بذلوا وُسعهم في نفي التهمة عن ابنهم كعب،وعن أنفسهم.يقول كعب:(وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بني سَلِمَة فَاتَّبَعُوني،فَقَالوا لِي:وَاللهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا،ولَقَدْ عَجَزْتَ أَلَّا تكونَ اعْتَذَرْتَ إلى رسول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ المُتَخَلِّفُونَ،قَدْ كانَ كَافِيْكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ لَكَ،فَوَاللهِ مَا زَالوا يُؤَنِبُونَنِي حتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي).ولعل حرصهم الشديد هذا على تبرئة ساحته وساحتهم–الذي تدل عليه كلمات:"ثار"و"اتبعوني"،و"ما زالوا يؤنبونني"،لعله كان لأن الجد بن قيس المنافق الذي نزلت فيه آية

براءة الشـــهيرة(وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَـــقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ(التوبة:49)،كان هو الآخر من بني سلمة(112)

وهذا يفسر محاولات بني سلمة المتكررة في هذا الحديث تبرئة ساحتهم من تهمة النفاق،حين قال أحدهم ردًا على سؤال الرسول عن كعب:"يا رَسُولَ اللهِ،حَبَسَهُ بُرْدَاهُ ونَظَرَه في عِطْفِه"،ثم حين لاموا كعبًا على أن لم يكن اعتذر كما اعتذر غيره

وهناك إيتوس أكبر وأكبر،هو انتماء كعب وقومه من الأنصـــار إلى كيان أكبر من القبائل اليمنية،يشمل معهم الغساسنة ملوك الشام،وقد صور لنا كلام كعب أبد تصوير وأدقه موقف ذلك الكيان منه،ومحاولاته استمالته،وعرضه عليه نُصرَتِه وهو في أسوأ حال من العزلة الاجتماعية التي فيها يكون الإنســان أضــعف ما يكون،ثم كيف انتصــر كعب على هذا الإغواء،ونجح في الامتحان باقتدار،يقول كعب:"فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِــي بِسُــوقِ المـــــَـــــدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّـــامِ ممَّن قَدِمَ بالطَّعَامِ يَبِيعُه بالمدينةِ،يقُولُ:مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بنِ مالك؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِــيرونَ لهُ،حتَّى إذا جَاءَنِي دَفَعَ لِي كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّـــانَ،فَإذا فيْهِ:أَمَّا بعدُ؛فَإنَّه قَد بَلَغَنِي أنَّ صـــاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ،ولَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ ولا مَضْيَعَةٍ،فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ،فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا:وَهَذَا أَيْضًا مِنَ البَلاءِ،فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورُ فَسَجَرْتُه بِهَا"

الباتوس:

الحجاج ركيزة أســاســية في كل خطاب ذي غاية،وهو نفوذ خطابي،وفعل فكري،الهدف منه استمالة الآخر،وترويض مشاعره وأفكاره،ثم إنه ظاهرة ملازمة لإنتاج الخطاب؛إذ هو السمة الأساسية للتواصل وتحققه(113).ولاشك في أن الأديب والنص والمتلقي عناصر أساسية مشتركة في أي عمل أدبي،وأن للمتلقي دورًا بارزًا،وحضورًا في الموقف الحجاجي؛لأن نجاح الحجاج معتمد-بشكل كبير-على إقناع ذلك المتلقي والتأثير فيه.وفي هذا يقول أرســطو:"الباتوس هو ما ينزع إليه هذا الإنســان أو ذاك نزوعًا طبيعيًّا،أي على ســبيل الاســتعداد الطبيعي؛إنه ذلك الشــيء الذي يميل إليه ويتوخاه"(114)،يعني:عواطف المتلقي،وكيف يمكن أن نؤثر في هذه العواطف لاســتمالته.والمتلقي هو الذي عليه تأويل ما بين يديه من قرائن النص والمتكلم والســياق ليصــل إلى ما يريده المتكلم منه.وفيما يخص المتلقي في النص محل الدراسة،كان الأمر كما يأتي:

أ-قد يكون المتلقي عامًّا غير مقيد بزمان ولا مكان:

وهذا موجود بوضـــوح في النص الذي بين أيدينا،وظاهر في صـــياغته في هيئة رواية ذات بناء قصـــصـــي،تناقلتها الأجيال،منذ صـــاغها كعب-رضـــي الله عنه-فحفظها عنه الرواة،ثم دونت في كتب الحديث النبوي الشريف،وينهل منها دارسو الحديث والقارئون لهذه الكتب حتى الآن.

ب- وقد يكون المتلقي أقل عمومًا،ويتمثل في مجموعة من المعاصرين:

وقد كان هذا أيضًا،حين سأل السائلون كعبًا عما كان من أمر تخلفه عن غزوة تبوك.

جـ-وربما كان المتلقي شخصًا واحدًا:

ونجد هذا في الحديث في عدد من المواضـع،منها الوقف الذي حاول فيه كعب الاعتذار للرسـول-صلى الله عليه وسلم-وتبرير موقفه،قائلاً:"واللهِ لو جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ من أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ

سَـــخَطِهِ بِعُذْرٍ،ولَقَدْ أُعْطِيْتُ جَدَلاً،وَلَكِنِّي واللهِ،لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليومَ حدِيْثَ كَذِبٍ تَرْضَـــى بِهِ عَنِّي،لَيُوْشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ،ولَئِن حَدَّثْتُكَ حَدِيْثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيْه إِنِّي لَأَرْجُو فِيْهِ عَفْوَ اللهِ،لَا واللهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ،وَمَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى ولا أَيْسَرَ مِنِّي حَيْنَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ،فَقَالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَـــلَّمَ:أَمَّا هَذَا فَقَد صَـــدَقَ،فَقُمْ حَتَّى يَقْضِـــيَ اللهُ فِيْكَ.فَقُمْتُ"،وقد نجحت عملية الإقناع هنا فنجح الحجاج.

والموقف الذي حاول فيه رجال من بني سلمة إقناع كعب بأن يعتذر للرسول كما اعتذر غيره،يقول:"وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بني سَـــلِمَة فَاتَّبَعُوني،فَقَالوا لِي:وَاللهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا،ولَقَدْ عَجَزْتَ أَلَّا تكونَ اعْتَذَرْتَ إلى رسول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلِيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ المـُـــتَخَلِّفُونَ،قَدْ كانَ كَافِيْكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللهِ صَـلَّى اللهُ عليهِ وسَـلَّمَ لَكَ،فَوَاللهِ مَا زَالوا يُؤَنِبُونَنِي حتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِـي" ونجحت عملية الإقناع هنا فنجح الحجاج هنا أيضًا؛بدليل أن كعبًا همَّ بأن يرجع عن موقفه.

والموقف الذي حاول فيه كعب إقناع ابن عمه،يقول:"مَشَيْتُ حتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ،وهو ابنُ عَمِّي وأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ،فَسَـلَّمْتُ عليه،فَوَاللهِ ما رَدَّ عَلَيَّ السَّـلامَ،فَقُلْتُ:يا أَبَا قَتَادَةَ،أَنْشُـدُكَ بِاللهِ،هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ ورَسُوْلَه؟فَسَكَتْ،فَعُدْتُ له فَنَشَدْتُه، فَسَكَتْ،فَعُدْتُ له فَنَشَدْتُه،فَقَالَ:اللهُ ورَسُولُه أَعْلَمُ،ففاضَتْ عَيْنَايَ ،وَتَوَلَّيْتُ حتَّى تَسَوَّرتُ الجِدَارَ"،أي أن محاولة الإقناع فشلت،ففشل الحجاج؛لأسباب مردها إلى التزام أبي قتادة بأمر الرسول بمقاطعة كعب.

والموقف الذي حاول فيه ملك غســان التأثير في كعب،يقول:"دَفَعَ لِي كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّــانَ،فَإذا فيْهِ:أَمَّا بعدُ؛فَإِنَّه قَد بَلَغَنِي أَنَّ صاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ،ولَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ ولا مَضْيَعَةٍ،فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ،فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا:وَهَذَا أَيْضًـا مِنَ البَلاءِ،فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ"،وهنا فشلت محاولة الإقناع،ففشل الحجاج أيضًـا؛بسبب صدق إيمان كعب

ولعل من الممكن إدراج قصـــة كعب تحت نوع الخطابة القضـــائية،وهو أحد أنواع الخطابة الثلاثة الكبرى(أو أنماط الحجاج الكبرى) الكبرى عند أرسـطو(115)؛إذ فيها كثير من سـماتها،وفيها :القاضـي، والمتهمون،والدفاع،والحكم...إلخ.

وفي هذا النوع يكون المطلوب إثارة الغضـب على الجاني والشـفقة على الضـحية،وقد نجح كعب–رضـي الله عنه–في إثارة شـــفقة المتلقين عليه–على اختلاف أولئك المتلقين للنص–وابتعد بهم رويدًا رويدًا عن مشاعر الغضب منه لتخلفه عن غزوة تبوك

اللوجوس:

وحجج اللوجوس موزعة على القصـــة كلها،ويمكن أن ندرج فيها المعطيات والســـمات البلاغية والأسلوبية كلها التي سبق الكلام عنها في أثناء البحث.مع أن المشهور–في كثير من دراسات الحجاج– الاقتصـار على ثلاثة أنواع من حجج اللوجوس،هي:القياس المُـــــــــــــــضْـمَر،والمقارنة أو الشـاهد،والتفخيم(116).ويغيب التفخيم عن هذا النص،والقياس المضـمر سـبق الكلام عن بعضـه في المبحث الأول،عند الكلام عن الحقائق.والشـاهد ثلاثة أنواع(117):الشـاهد التاريخي،والشـاهد المبتكر المحتمل،والخرافة،والأول وحده هو الموجود في النص المدروس هنا،ويتجلى في تدليل كعب بما كان منه

في بيعة العقبة،وفي حضـوره المشـاهد كلها مع النبي عدا بدرًا.وكان ذكره غزوة بدرٍ بالذات مهمًا؛لأنه لم يشـــهد بدرًا هذه واحدة؛ولأنه اســـتند في أول كلامه إلى أن العقبة أهم من بدر،هذه الثانية؛ولأن عمر بن الخطاب–رضـــي الله عنه–حين أراد أن يقتل حاطبًا–رضـــي الله عنه–واتهمه بالنفاق لمراســـلته الكفار وإفشائه سر انتواء الرسول فتح مكة،قال له الرسول:(وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال:اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم)(118)

نص الحديث في صحيح البخاري

حدَّثَنَا يحيى بن بُكَيْرٍ قال:حدَّثَنَا الليثُ،عن عُقَيْلٍ عنِ ابنِ شِـــهابٍ،عن عبدِ الرحمنِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ كعبٍ،أنَّ عبد الله بن كعب بن مالكٍ–وكان قائد كعبٍ من بنيه حينَ عَمِيَ–قال:ســـمعتُ كعبَ بنَ مالكٍ يُحَدِّثُ حينَ تخلَّفَ عن قِصَّـة تبوكَ،قال كعبُ:لم أتخلَّفْ عن رسـولِ اللهِ صـلَّى الله عليه وسـلَّمَ في غزوةٍ غَزَاهَا إلا في غزوةِ تبوكَ،غيرَ أنِّي كنتُ تخلَّفْتُ في غزوةِ بدرٍ،ولمْ يُعاتِبْ أحدًا تخلَّفَ عنها،إنما خرج رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يريدُ عيرَ قريشٍ،حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غيرِ ميعادٍ،ولقد شـهدتُ مع رسـولِ اللهِ صـلَّى الله عليه وسـلَّمَ ليلةَ العقبةِ حين تواثقْنَا على الإسـلامِ،وما أُحِبُّ أن لي بها مشـــهدَ بدرٍ،وإنْ كانت بدرٌ أذكَرَ في الناس منها،كان من خَبَرِي:أنِّي لم أكن قَطُّ أقوَى ولا أيْسَـــرَ حينَ تخلَّفْتُ عنه في تلك الغزاةِ،والله ما اجتمعتْ عندي قَبْلَهُ راحلتانِ قَطُّ حتَّى جمعْتُهما في تلك الغَزْوَةِ،ولم يكنْ رسـولُ اللهِ صـلَّى الله عليه وسـلَّمَ يريدُ غزوةً إلاَّ ورَّى بغيرها،حتَّى كانتْ تلك الغزوة،غَزَاها رسـولُ الله صـلَّى الله عليه وسلَّمَ في حَرٍّ شديدٍ،واستقبلَ سَفَرًا بعيدًا وَمفَازًا وعدوًّا كثيرًا،فَجَلَّى للمسلمينَ أَمْرَهم؛ليتأهبوا أُهْبَةَ غَزْوِهم،فأَخْبَرَهُم بوجهه الذي يريدُ،والمسلمونَ مع رسـول الله صـلَّى الله عليه وسـلَّمَ كثيرٌ،ولا يجمعُهُمْ كِتابٌ حافظٌ–يريدُ الدِّيوانَ–قال كعب:فما رجلٌ يريدُ أن يتغيَّبَ إلاَّ ظَنَّ أنْ سَـيَخْفَى له،ما لمْ يَنْزِلْ فيه وَحْيُ الله،وغَزَا رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسَلَّم تِلكَ الغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ والظِّلالُ،وتَجَهَّزَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمسلمونَ معهُ،فَطَفِقْتُ أَغدو لِكَي أتجهَّزَ معهم،فأَرْجِعُ ولَمْ أَقْضِ شيئًا،فأَقُولُ في نَفْسِي:أَنَا قادرٌ عَليه،فَلَم يَزَلْ يتمادَى بي حتَّى اشتدَّ بالناس الجدّ فَأَصْبَحَ الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمسلمون معه ولَم أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شـــيئًا،فقلتُ:أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بيومٍ أوْ يومَينِ،ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ،فَغَدَوْتُ بَعدَ أنْ فَصَـــلُوا لأتَجَهَّزَ،فَرَجَعْتُ ولَمْ أَقْضِ شـيئًا،ثُمَّ غَدَوْتُ،ثُمَّ رَجَعْتُ ولم أَقْضِ شـيئًا،فلَمْ يَزَلْ بِي حتَّى أَسْـرَعُوا وتَفَارَطَ الغَزْوُ،وهَمَمْتُ أنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُم،وليتني فعلتُ!فلمْ يُقَدَّرْ لي ذلك،فكُنْتُ إذا خَرَجْتُ في النَّاسِ بعدَ خُروج رسولِ اللهِ صـلَّى الله عليه وسلَّم فَطُفْتُ فيهم،أَحْزَنَني أَنِّي لا أَرَى إلاَّ رَجُلاً مَغْموصًا عليه النِّفَاقُ،أوْ رَجُلاً ممَّنْ عَذَرَ اللهُ مَن الضُّعَفَاءِ،ولَمْ يَذْكُرْنِي رَسُول الله صَلَّى الله عليه وسلَّمَ حتَّى بَلَغ تبُوكَ،فَقَالَ وهو جَالِسٌ فِي القَوْمِ بتَبُوكَ:ما فَعَلَ كَعْبٌ؟فَقالَ رَجُلٌ مِن بني سَـلَمَةَ:يا رَسُـولَ اللهِ،حَبَسَـهُ بُرْدَاهُ ونَظَرَه في عِطْفِه،فقال معاذُ بنُ جَبَلٍ:بِئسَ ما قُلْتَ،واللهِ يا رَسُـولَ اللهِ ما عَلِمْنَا عليه إلا خَيرًا،فَسَـكَتَ رَسُـولُ اللهِ صَـلَّى اللهُ عليهِ وســـلَّمَ،قال كَعْبُ بنُ مالكٍ:فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّه تَوَجَّه قافِلاً،حَضَـــرَنِي هَمِّي،وطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الكَذِبَ،وأَقُولُ:بماذَا أَخْرُجُ مِنْ سَـخَطِه غدًا؟! واسـتعنتُ على ذلكَ بكُلِّ ذِي رأيٍ مِنْ أَهْلِي،فلمَّا قِيلَ:إنَّ رَسـولَ اللهِ صَـلَّى اللهُ عليه وســـلَّمَ قدْ أَظَلَّ قادِمًا،زَاحَ عَنِّي الباطلُ،وعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنه أَبَدًا بِشَـــيءٍ فيه كَذَبٌ،فَأَجْمَعْتُ صِـدْقَهُ،وأَصْـبَحَ رَسُـولُ اللهِ صـلَّى اللهُ عليه وسـلَّمَ قَادِمًا،وكانَ إذا قَدِمَ مِنْ سَـفَرِه،بَدَأَ بِالمَسْـجِدِ،فَيَرْكَعُ فيه

رَكْعَتَينِ،ثُمَّ جَلَسَ للنَّاسِ،فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ المُـــخَلَّفُونَ ،فَطَفِقُوا يَعْتَذِرونَ إِلَيْهِ وَيَحلِفُونَ لهُ،وكانوا بِضْعَةً وثمانينَ رَجُلاً،فَقَبِلَ منهم رسولُ الله صـلَّى الله عليه وسـلَّمَ عَلانِيتَهُم،وبَايَعَهُم واستغفَرَ لهم،ووَكَلَ سَرَائِرَهُم إلى اللهِ،فَجِئْتُه،فَلَمَّا سَلَّمْتُ عليه تبسَّمَ تَبَسُّمَ المُـــــغْضَبِ،ثمَّ قالَ:تَعَالَ،فجِئْتُ أَمْشِي حتى جلستُ بينَ يديهِ،فقالَ لي:مَا خَلَّفَكَ؟أَلَمْ تكُنْ قد ابتَعْتَ ظَهْرَكَ؟فقلتُ:بَلَى،إِنِّي واللهِ لو جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ من أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَـــأَخْرُجُ مِنْ سَـــخَطِهِ بِعُذْرٍ،ولَقَدْ أُعْطِيْتُ جَدَلاً،وَلَكِنِّي واللهِ،لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليومَ حدِيْثَ كَذِبٍ تَرْضَى بهِ عَنِّي،لَيُوْشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ،ولَئِن حَدَّثْتُكَ حَدِيْثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيْه إِنِّي لَأَرْجُو فِيْهِ عَفْوَ اللهِ،لَا واللهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ،وَمَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى ولا أَيْسَرَ مِنِّي حَيْنَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ،فَقَالَ رسولُ اللهِ صَـلَّى اللهُ عليهِ وسَـلَّمَ:أَمَّا هَذَا فَقَد صَـدَقَ،فَقُمْ حَتَّى يَقْضِـيَ اللهُ فِيْكَ.فَقُمْتُ،وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بني سَـلِمَةَ فَاتَّبَعُوني،فَقَالوا لِي:وَاللهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا،ولَقَدْ عَجَزْتَ أَلَّا تكونَ اعْتَذَرْتَ إلى رســـول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ المُـــتَخَلِّفُونَ،قَدْ كانَ كَافِيْكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَـلَّمَ لَكَ،فَوَاللهِ مَا زَالوا يُؤَنِبُونَنِي حتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِـي،ثُمَّ قُلْتُ لَهُم:هَلْ لَقِيَ هذا مَعِيَ أَحَدٌ؟قَالوا:نَعَم،رَجُلانِ قَـالا مـا قُلْتَ،فَقِيْلَ لَهُمَا مثلُ مَا قِيْلَ لَكَ،فَقُلْتُ:مَنْ هُمَا؟ قَالوا:مُرَارَةُ بنُ الرَّبِيْعُ العَمْرِيّ،وهِلالُ بن أُمَيَّةَ الوَاقِفِيّ،فَذَكروا لِي رَجُلَيْنِ صَـــالِحَيْنِ قَدْ شَـــهِدَا بَدْرًا،فِيْهِمَا أُسْـــوَة،فَمَضَـــيْتُ حِيْنَ ذَكَرُوهُما لِي،ونَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ المُـــسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثلاثَةُ مِنْ بينِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْـهُ،فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ،وتَغَيَّروا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِـــيَ الأرضُ،فما هِي التي أَعْرِفُ،فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِـينَ لَيْلَةً،فَأَمَّا صَـاحِبَايَ فَاسْـتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بيُوتِهما يَبْكِيَانِ،وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَـبَّ القَوْمِ وأَجْلَدَهم،فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ المُـــسْلِمِيْنَ،وَكُنْتُ أَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحدٌ،وآتِي رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وهُو في مَجْلِسِه بَعْدَ الصَّلَاةِ،فَأَقُولُ فِي نَفْسِي:هَل حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ علَيَّ أَمْ لا؟ثُمَّ أُصَـــلِّي قَرِيْبًا منه،فَأُسَـــارِقُهُ النَّظَرَ،فإذا أَقْبَلْتُ على صَـــلاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ،وإِذَا التَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي،حَتَّى إذا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ،مَشَيْتُ حتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ،وهو ابنُ عَمِّي وأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ،فَسَـلَّمْتُ عليه،فَوَاللهِ ما رَدَّ عَلَيَّ السَّـلامَ،فَقُلْتُ:يا أَبَا قَتَادَةَ،أَنْشُـدُكَ بِاللهِ،هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ ورَسُـوْلَه؟فَسَـكَتَ،فَعُدْتُ له فَنَشَـدْتُه، فَسَـكَتَ،فَعُدْتُ له فَنَشَـدْتُه،فَقَالَ:اللهُ ورَسُـولُه أَعْلَمُ،ففاضَـتْ عَيْنَايَ ،وَتَوَلَّيْتُ حتَّى تَسَوَّرتُ الجِدَارَ،قَالَ:فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ المَـدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّامِ ممَّن قَدِمَ بالطَّعَامِ يَبِيعُه بالمدينةِ،يقُولُ:مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بنِ مالك؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِـيرونَ لهُ،حتَّى إذا جَاءَنِي دَفَعَ لِي كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّـانَ،فَإِذا فيْهِ:أَمَّا بعدُ؛فإِنَّه قَد بَلَغَنِي أَنَّ صـاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ،ولَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ ولا مَضْـيَعَةٍ،فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ،فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا:وَهَذَا أَيْضًـا مِنَ البَلاءِ،فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَـجَرْتُه بِهَا،حَتَّى إِذَا مَضَـى أَرْبَعُونَ لَيلةً مِنَ الخَمْسِينَ،إِذا رَسُولُ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ يَأْتِينِي،فَقَال:إِنَّ رَسُولَ اللهِ صـــلَّى اللهُ عليه وســـلَّمَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ،فَقُلْتُ:أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذا أَفْعَلُ؟ قَال:لا،بَلِ اعْتَزِلْهَا ولا تَقْرَبْهَا،وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ،فَقُلْتُ لامْرَأَتِي:الْحَقِي بِأَهْلِكِ،فَتَكُونِي عِنْدَهُم حتَّى يَقْضِـيَ اللهُ في هذا الأَمْرِ،قال كَعْبٌ:فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلالِ بنِ أُمَيَّةَ رَسُـولَ الله صـلَّى اللهُ عليه وسَـلَّمَ،فَقَالَتْ:يَا رسـولَ اللهِ، إِنَّ هِلالَ بنَ أُمَيَّةَ شَـيخٌ ضَـائِعٌ،لَيْسَ له خَادِمٌ،فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟قَالَ:لا،ولكنْ لا يَقْرَبْكِ.قَالَتْ:إِنَّهُ واللهِ ما به حركةٌ إلى شـــيءٍ،واللهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنذُ كانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَان إِلَى يَومِهِ هذَا،فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي:لَوِ

اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لامرأَةِ هِلالِ بنَ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ،فقُلتُ:واللهِ لا أستأْذِنُ فيها رَسُولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ،ومَا يُدْرِينِي مَا يقُولُ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ إِذَا اسْتَأْذَنْتُه فيها وأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ؟فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ،حتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِيْنَ نهَى رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ عَنْ كلامِنَا،فَلَمَّا صَلَيْتُ صَلاةَ الفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَأَنَا على ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بيوتِنَا،فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الحَالِ التي ذَكَرَ اللهُ،قدْ ضَـــاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِـــي،وضَـــاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ،سَـمِعَتُ صَـوْتَ صَـارِخٍ،أَوْفَى على جَبَلِ سَـلْعٍ بِأَعْلَى صَـوْتِهِ:يَا كَعْب بنَ مَالِكٍ،أَبْشِـرْ،قَالَ:فَخَرَرْتُ سَـاجِدًا،وعَرَفْتُ أَنْ قدْ جَاءَ فَرَجٌ،وَآذَنَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ بِتَوبَةِ اللهِ عَلَيْنَا حِينَ صَـلَّى صَـلاةَ الفَجْرِ،فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّـرُونَنَا،وَذَهَبَ قِبَلَ صَـاحِبَيَّ مُبَشِّـرُونَ،وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًـا،وَسَـعَى سَـاعٍ مِنْ أَسْلَمَ،فَأَوْفَى عَلَى الجَبَلِ،وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنْ الفَرَسِ،فَلَمَّا جَاءَنِي الذي سَمِعْتُ صَـوْتَهُ يُبَشِّـرُنِي،نَزَعْتُ له ثَوْبَيَّ،فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا ببُشْرَاهُ،واللهِ ما أَمْلِكُ غَيرَهُمَا يَومَئِذٍ،واسْتَعَرْتُ ثَوْبَينِ فَلَبَسْتُهُمَا،وانْطَلَقْتُ إلى رَسُولِ الله صـــلَّى اللهُ عليه وسَـــلَّمَ،فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوجًا فَوجًا،يُهَنِّؤُنِي بِالتَّوبَةِ،يَقُولُونَ:لِتَهْنِكَ تَوبَةُ اللهِ عليكَ،قَال كعبُ:حتَّى دَخَلتُ المسـجِدَ،فَإِذَا رَسُـولُ الله صـلَّى اللهُ عليه وسَـلَّمَ جَالِسٌ حولَهُ النَّاسُ،فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ حتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي،واللهِ ما قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ المُـهَاجِرِينَ غَيْرَهُ،ولَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ،قَالَ كَعْبٌ:فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ،قَالَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُه مِنَ السُّـرُورِ:أَبْشِـرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ،قَالَ:أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُـولَ اللهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟قَالَ:لا،بَلْ مِن عِندِ اللهِ–وَكَانَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُه حتَّى كَأَنَّه قِطْعَةُ قَمَرٍ،وكُنَّ نَعْرِفُ ذَلِك مِنْه،فَلَمَّا جَلَسْتُ بينَ يَديهِ قُلْتُ:يَا رسُولَ اللهِ،إِنَّ مِنْ تَوبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُـولِ اللهِ،قَالَ رَسُـولُ الله صـلَّى اللهُ عليه وسَـلَّمَ:أَمْسِـكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ؛فَهُوَ خَيرٌ لكَ.قُلْتُ:فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الذِي بِخَيْبَرَ.فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّ اللهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ،وإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ.فواللهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ المُـــسلمينَ أبلاه اللهُ فِي صِدْقِ الحديثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لرَسُولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ أَحْسَنَ ممَّا أَبْلانِي؛مَا تَعَمَّدْتُ مُذْ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لرَسُولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسَـلَّمَ إِلَى يَوْمِي هذا كَذِبًا،وإِنِّي لَأَرجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللهُ فِيمَا بَقِيْتُ،وأَنْزَلَ اللهُ على رَسُـولِ الله صـلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ:(لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ) إلى قَوْلِهِ: (وَكُونُوا مَعَ الصَّـادِقِينَ)،فَوَاللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ على نِعْمَةٍ قَطُّ بَعدَ أَنْ هَدَانِي للإِسْلام،أَعْظَمَ فِي نَفْسِي من صِدْقِي لرَسُولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسَـلَّمَ،أَنْ لا أَكُونَ كَذَبْتُهُ،فأَهْلِكَ كمَا هَلَكَ الذِيْنَ كَذَبُوا؛فإِنَّ الله قَال للذينَ كَذَبُوا–حِينَ أَنْزَلَ الوَحْيَ–شَـرَّ مَا قَالَ لأَحَدٍ،فَقَالَ تَبَارَكَ وتَعَالَى:(سَـيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ) إِلَى قَوْلِهِ: (فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَـىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِـقِينَ).قَالَ كَعبٌ:وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولئِكَ الذِيْنَ قَبِلَ مِنْهُم رَسُـولُ الله صـلَّى اللهُ عليه وسَـلَّمَ حِيْنَ حَلَفُوا لَه،فَبَايَعَهُمْ واسْـتَغْفَرَ لَهُمْ،وأَرْجَأَ رَسُـولُ الله صـلَّى اللهُ عليه وسَـلَّمَ أَمْرَنَا حتَّى قَضَـى اللهُ فِيْهِ،فَبِذَلِكَ قَالَ اللهُ:(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا)،وَلَيْسَ الذِيْ ذَكَرَ اللهُ ممَّا خُلِّفْنَا عَنِ الغَزْوِ،إِنَّمَا هو تَخْلِيْفُهُ إِيَّانَا،وإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ واعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ"(119)

الخاتمة وأهم النتائج

الحمد لله الذي بتوفيقه تُرفع الدرجات،منه المبدأ وإليه المآل،وله الحمد في الأولى والآخرة.ها قد انتهى هذا البحث الموجز عن بلاغة الحجاج في قصة كعب بن مالك–رضي الله عنه–مفضيًا إلى عدد من النتائج،منها الآتي:

1–لم يكن بناء رواية كعب قصة تخلفه عن غزوة تبوك لمجرد الإخبار بما كان أو حتى التسلية،وإنما استخدم وسائل لغوية وبلاغية ومنطقية ذات أثر حجاجي واضح.

2– الخطاب في هذه القصة متجاوز لحدود الزمان والمكان اللذين قيلت فيهما،إلى متلقين عامين؛بهدف تغيير موقفهم من صاحب القصة ورأيهم في تخلفه عن غزوتي بدر وتبوك.

3–بُنى الحجاج في هذا النص على مقدمات،اتخذها صاحبه منطلقًا لإقناع جمهوره،أي أنها نقطة انطلاق الاستدلال،هي:الوقائع،والحقائق،والافتراضات،والقيم،والتراتبيات(هرمية القيم)،والمعاني أوالمواضع:مواضع الكمّ،ومواضع الكيف،مواضع الترتيب،ومواضع الموجود.واختار تلك المقدمات بدقة،ورتبها بعناية،بحيث جعلها حجاجية.

4–تنوعت وسائل الحجاج في قصة كعب،فكان منها الحجاج اللغوي،على مستوى الكلمة،والجملة.والحجاج البلاغي بالمعاني،المتمثل في الإيجاز والإطناب.وبالبيان:التشبيه،والاستعارة،والمجاز المرسل،والكناية.والحجاج بالبديع،الذي تمثل في الطباق والمقابلة،وحسن التعليل.إضافة إلى وسائل حجاجية غير لفظية،هي الصمت،ولغة الجسد.

5–أما عن آليات الحجاج في قصة كعب،فمنها أفعال الكلام،وعلى رأسها التوجيهات:التأكيد بالقَسَم والقَصْر،والأمر،والإغراء والتحذير.أما الاستغاثة والندبة فلا وجود لهما في النص،وهذا يتفق وشخصية كعب الجَلْد ذي العزيمة،القادر على تجاوز المحن بصلابة.

6–لعل من الممكن إدراج قصة كعب تحت نوع الخطابة القضائية.وفي هذا النوع يكون المطلوب إثارة الغضب على الجاني والشفقة على الضحية،وقد نجح كعب–رضي الله عنه–في إثارة شفقة المتلقين عليه–على اختلاف أولئك المتلقين للنص–وابتعد بهم تدريجيًّا عن مشاعر الغضب منه لتخلفه عن غزوة تبوك.

7–يغيب التفخيم عن هذا النص،بينما يحضر القياس المضمر،والشاهد.ثم إن الشاهد ثلاثة أنواع:الشاهد التاريخي،والشاهد المبتكر المحتمل،والخرافة،والأول وحده هو الموجود في النص المدروس هنا،ويتجلى في تدليل كعب بما كان منه في بيعة العقبة،وفي حضوره المشاهد كلها مع النبي عدا بدرًا.واستند إلى ذكر غزوة بدرٍ بالذات لدوافع منهجية.

ثم من توصيات هذا البحث:دراسة تحليلية مقارنة بين هذا النص،ونص حديث الإفك؛لرصد ما بينهما من أوجه التناظر،والتشابه،والاختلاف،وأثر هذا في البناء اللغوي والحجاجي فيهما.

والله المستعان

حواشي البحث

(1)بل ومن أسرة شاعرة أيضًا؛إذ كان أبوه ،وأمه ،وعمه،وابنان له،وأحفادٌ شعراء كلهم! يُنْظَر: د.سامي مكي العاني:كعب بن مالك الأنصاري.شاعر العقيدة الإسلامية،سلسلة أعلام المسلمين(18)،دار القلم،دمشق-بيروت،ط2 1410هـ/1990م،ص48، 118،وعلي صبري:كعب بن مالك،مجلة هدى الإسلام،وزارة الأوقاف والشئون والمقدسات الإسلامية،المجلد الثالث والعشرون،العددان الخامس والسادس،1979م،ص63

(2)ممن شهد له بأنه شاعر مُجِيد،ووضعه في زمرة الفحول،محمد بن سلام الجمحي،وأورد له في كتابه شعرًا في وصف غزوتي أحد والخندق،يُنْظَر:طبقات فحول الشعراء،جـ1ص220، 221

(3)ممن ردد هذا حديثًا نقلاً عن مصادر قديمة،د.حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار:كنوز رياض الصالحين،دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع،الرياض،ط1 1430هـ،جـ1ص300،ومحمد محمد خليفة:كعب بن مالك شاعر السيف والقلم،مجلة البحوث الإسلامية،الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء،المجلد الأول،العدد الأول،1975م،ص104

(4)بين يدي الباحث منها وهو يكتب هذه الكلمات ما يجاوز المائتين عدًّا،والمجال يضيق عن مجرد سرد أسمائها،وإن أفاد من كثير منها،وأثبت هذا في الحواشي.

(5)معلوم أن هذا الحديث ورد أيضًا في غير صحيح البخاري من كتب الحديث،لكن الباحث ارتضى أن يحدد بحثه موضوعيًّا برواية البخاري.

(6)يُنظر:سورة التوبة،الآيتان 118، 119

(7)ابن فارس:مقاييس اللغة،راجعه وعلق عليه أنس محمد الشامي،دار الحديث،القاهرة،1429هـ/2008م،مادة(ق-ص-ص)،وتُنظَر المادة ذاتها عند :الرازي:مختار الصحاح، دار المعرفة،بيروت، لبنان،ط7 1435هـ/2014م

(8)ابن سيده:المحكم والمحيط الأعظم،تحقيق د.عبد الحميد هنداوي،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط1 1421هـ/2000م،مادة(ق-ص-ص)،جـ6 ص101

(9)الزمخشري:أساس البلاغة،تحقيق محمد باسل عيون السود،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط1 1419هـ/1998م،مادة(ق-ص-ص)،ويُنظر أيضًا:الكفوي:الكليات.معجم في المصطلحات والفروق اللغوية،مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،ط2 1419هـ/1998م،فصل القاف،ص618.

(10)ابن منظور:لسان العرب،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،2014م،مادة(ق-ص-ص)،ويُنْظَر ماورد في هذه المادة أيضًا عند:الصاحب بن عباد:المحيط في اللغة،تحقيق محمد حسن آل ياسين،عالم الكتب،بيروت،لبنان،ط1 1414هـ/1994م،جـ5ص186،والجوهري:الصحاح.تاج اللغة وصحاح العربية،راجعه واعتنى به د.محمد محمد تامر وأنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد،دار الحديث،القاهرة،1430هـ/2009م،ص946،وابن سيده:المحكم والمحيط الأعظم،جـ6 ص101

(11)يُنْظَر:د.عبد الرحيم الكردي:البنية السردية للقصة القصيرة،مكتبة الآداب،القاهرة،ط3 1426هـ/2005م،ص59، 60

(12)د.سمير سعيد حجازي:قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر،دار الآفاق العربية،القاهرة،ط1 1421هـ/2001م،ص124

(13)د.الطاهر أحمد مكي:القصة القصيرة.دراسة ومختارات،دار المعارف،القاهرة،ط8 1999م،ص98

(14)خالد ناصري:الخطاب النبوي الشريف،ص147

(15)منها محاولة محمد لبيب البوهي:كعب بن مالك،مجلة الوعي الإسلامي،وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية،العدد الثالث،يوليو 1965م،ص86-91

(16)ابن فارس:مقاييس اللغة،مادة(ح-ج-ج).

(17)ابن سيده:المحكم والمحيط الأعظم،تحقيق د.عبد الحميد هنداوي،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط1 1421هـ/2000م،مادة(ح-ج-ج)،جـ2ص482

(18)الزمخشري:أساس البلاغة،مادة(ح-ج-ج)

(19)الكفوي:الكليات.معجم في المصطلحات والفروق اللغوية،مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،ط2 1419هـ/1998م،فصل الحاء،ص300

(20)الكفوي:الكليات،ص338.

(21)ابن منظور:لسان العرب،مادة(ح-ج-ج)ويُنْظَر ماورد في هذه المادة أيضًا عند:الصاحب بن عباد:المحيط في اللغة،جـ2ص292،والجوهري:الصحاح،ص225، 226،وابن سيده:المحكم والمحيط الأعظم،جـ2 ص482

(22)محمد العبد:النص الحجاجي العربي.دراسة في وسائل الإقناع،مجلة النقد الأدبي(فصول)،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،العدد 60،صيف-خريف 2002م،ص44.وفي تعريف الحجاج اصطلاحًا،يُنظر كذلك:د.عبد الله صولة:في نظرية الحجاج.دراسات وتطبيقات،ص13،ومحمد الحسين الواسطي:أساليب الحجاج في البلاغة العربية،مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية،جامعة سيدي محمد بن عبد الله،فاس،المغرب،العددالثاني عشر،2001م،ص21

(23)د.جمعان بن عبد الكريم الغامدي:الحجاج في الخطبة النبوية،ص284

(24)د.محمد بن محمد الجوي:أسلوب الحجاج في البيان القرآني،مجلة الوعي الإسلامي،العدد 501،جمادى الأولى 1428هـ،ص15

(25)محمد الحسين الواسطي:أساليب الحجاج في البلاغة العربية،مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية،جامعة سيدي محمد بن عبد الله،فاس،المغرب،العددالثاني عشر،2001م،ص34

(26)السابق،ص23-34

(27)د.جمعان بن عبد الكريم الغامدي:الحجاج في الخطبة النبوية،ص282

(28)د.عبد الله صولة:الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية،دار الفارابي،بيروت،لبنان، وكلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة،تونس،ط1 2001م،ص17

(29)طارق محمد سليمان محمد:الحجاج في خطب الحجاج.خطبته في أهل العراق،رسالة ماجستير غير منشورة،كلية الدراسات العليا،جامعة النيلين،الخرطوم،السودان،2019م،ص30

(30)د.عبد الله صولة:في نظرية الحجاج،ص14

(31)د.حمادي صمود(مشرفًا على فريق البحث في البلاغة والحجاج):أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم،كلية الآداب منوبة،جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية،تونس،د.ت،ص306، 307،ود.عبد الله صولة:في نظرية الحجاج،ص21، 22

(32)علي صبري:من شعراء الإسلام،ص66، 67

(33)ينظر في هذا:د.عبد الله صولة:في نظرية الحجاج.دراسات وتطبيقات،مسكيلياني للنشر والتوزيع،تونس،ط1 2011م،ص24-30

(34)السابق،ص29

(35)ينظر:د.عبد الله صولة:في نظرية الحجاج،ص24،وطارق محمد سليمان :الحجاج في خطب الحجاج،ص31

(36)في اندراجه تحتها،يُنْظَر:خالد ناصري:الخطاب النبوي الشريف،ص44، 45

(37)السابق،ص26

(38)د.عبد الله صولة:في نظرية الحجاج،ص24، 25

(39)د.سامي مكي العاني:كعب بن مالك الأنصاري.شاعر العقيدة الإسلامية،سلسلة أعلام المسلمين(18)،دار القلم،دمشق-بيروت،ط2 1410هـ/1990م،ص76،6، 137،ود.عبد الهادي أحمد سيد عبد العال:الأساليب البلاغية لوصف أحوال النفس في حديث كعب بن مالك-رضي الله عنه-في صحيح مسلم،بحث بمجلة كلية اللغة العربية بأسيوط،جامعة الأزهر،العدد الثالث والثلاثون،الجزء الرابع،2014م،ص18

(40)من هذا قوله:

نَمْضِي ويذمُرنا عن غيرِ معصيةٍ كأنَّه البدر لم يُطْبَعْ على الكذِبِ

بـدا لـنا فاتـبعنـاه نُـصَـدقه وكـذَّبوه فـكنا أسـعدَ الـعـربِ

يُنظر:د.سامي مكي العاني:ديوان كعب بن مالك الأنصاري.دراسة وتحقيق،منشورات مكتبة النهضة،بغداد،ط1 1386هـ/1966م،ص175

وقوله:

أَبلِغْ قُرَيشًا وخيرُ القولِ أصدقُه والصدقُ عند ذوي الألبابِ مقبولُ

المصدر السابق،ص255

(41)ابن قيم الجوزية:زاد المعاد في هدي خير العباد،ضبط نصه شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط،مؤسسة الرسالة،ط1 1430هـ/2009م ص541

(42)السابق،ص542

(43)السابق،ص545، 546

(44)د.عبد الله صولة:في نظرية الحجاج،ص 25

(45)يُنظر:محمد رزق ساطور:وقفات وفوائد في قصة توبة كعب بن مالك،ص48

(46)د.عبد الله صولة:في نظرية الحجاج،ص 26

(47)السابق،ص 26

(48)السابق ،ص 27

(49)عنها يُنظر:السابق،ص 27

(50)عنها يُنظَر:السابق،ص 28

(51)ذهب جماعة من العلماء إلى أن مسألة شهود مرارة بن الربيع وهلال بن أمية–رضي الله عنهما– غزوة بدر،وهمٌ من الزهري–راوي الحديث عن كعب–واستدلوا على هذا بأنه لا يُحْفَظ عن أحد من أهل المغازي والسير القدماء، ذكْرُ هذين الرجلين في أهل بدر،لا ابن إسحق،ولاموسى بن عقبة ولا الأموي ولا الواقدي،ولا غيرهم.وأيد أن الزهري وهِمَ في هذا ابنُ الجوزي وأبو بكر الأثرم.يُنظر في هذا:ابن القيم:زاد المعاد،ص540

(52)د.عبد الله صولة:في نظرية الحجاج،ص 28

(53)السابق،ص 28

(54)السابق،ص30، 31

(55)محمد الناصر كحولي:الحجاج بالوصف.هنشير اليهودية لعبد القادر بن الحاج نصر أنموذجًا،مجلة آداب وإنسانيات،الجمعية التونسية للدراسات الأدبية والإنسانية،العددان السابع والثامن،2019م،ص44

(56)ابن فارس:مقاييس اللغة،مادة(خ–ر–ر)

(57)السابق،مادة(خ–ل–ع)

(58)الطبري:تفسير الطبري،تحقيق محمود محمد شاكر،سلسلة تراث الإسلام،الناشر مكتبة ابن تيمية،القاهرة،د.ت،جـ14 ص549 الحاشية الأولى

(59)السابق،جـ14 ص550،الحاشية السابعة

(60)ابن القيم:زاد المعاد،ص542

(61)الطبري:تفسير الطبري،14 ص 553،الحاشية الأولى

(62)ابن القيم:زاد المعاد،ص542

(63)هناك أمثلة رائعة على دلالة المضارع على التجدد والاستمرار في: البقاعي:نظم الدرر في تناسب الآيات والسور،دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،د.ت،جـ11 ص478 السطران 4، 5،جـ15 ص 55،السطر4،ص58 السطر 16، ص60 السطر 7

(64)توماس أوكونور سلوان:موسوعة البلاغة،ترجمة نخبة ،إشراف وتقديم د.عماد عبد اللطيف،المركز القومي للترجمة،القاهرة،ط1 2016م،جـ1 ص766

(65)محمد الناصر كحولي:الحجاج بالوصف،ص33

(66)الجرجاني: الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة،تحقيق د. عبد القادر حسين،مكتبة الآداب،القاهرة،1418هـ/1997م،ص38

(67)الجملة الاعتراضية التالية لكلمة "حافظ" زيادة من قول الزهري راوي الحديث لا من قول كعب رضي الله عنه.يُنظَر:ابن حجر:فتح الباري،جـ8 ص118

(68)د.حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار:كنوز رياض الصالحين،جـ1 ص306

(69)يُنْظَر:يارزمان جنت كل(منكل):التكرار في القرآن الكريم وأسراره البلاغية،رسالة دكتوراة غير منشورة،كلية اللغة العربية،الجامعة الإسلامية العالمية،إسلام آباد،1432هـ/2011م،ص46-65

(70)خالد ناصري:الخطاب النبوي الشريف،ص187

(71)هشام القلفاط:الحجاج التصويري في خطاب القرطاجني.تجلياته وأسسه،حوليات الجامعة التونسية،كلية الآداب والفنون والإنسانيات،جامعة منوبة،تونس،العدد59 ،2014م،ص10

(72)محمد الناصر كحولي:الحجاج بالوصف،ص68

(73)عبد القاهر الجرجاني:دلائل الإعجاز،تحقيق محمود شاكر،ص440-443،وبَسَطَ هذه المسألة د.بسيوني عبد الفتاح فيود:دراسات بلاغية،مؤسسة المختار للنشر والتوزيع،القاهرة،ط1 1419هـ/1998م،ص88، 89

(74)السكاكي:مفتاح العلوم،ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط2 1407هـ/1987م،مفتاح العلوم،ص369

(75)محمد الحسين الواسطي:أساليب الحجاج في البلاغة العربية،ص33

(76)محمد الناصر كحولي:الحجاج بالوصف،ص51

(77)الطبري:تفسير الطبري،جـ14 ص 550 الحاشية السادسة

(78)ابن القيم:زاد المعاد،ص541

(79)الطبري:تفسير الطبري،جـ14 ص550،الحاشية الأولى

(80)ابن حجر العسقلاني:فتح الباري،جـ8 ص121،والعيني:عمدة القاري،جـ18 ص68

(81)من هذا قوله:

من جِذْمِ غَسَّانَ مسترخٍ حمائلهم...لا جبناءٌ ولا ميلٌ معازيلُ

ويُنْظَر: محمد محمد خليفة:كعب بن مالك،ص107

(82)القنوجي:عون الباري،جـ4 ص588

(83)محمد الحسين الواسطي:أساليب الحجاج في البلاغة العربية،26

(84)ابن القيم:زاد المعاد،ص546

(85)أشهر ما يمكن أن يُستدل به على هذا، ذلك الفصل الذي عقده الباقلاني في كتابه لنفي السجع من القرآن،وناقش فيه هذه الفكرة،يُنْظَر:الباقلاني:إعجاز القرآن،تحقيق السيد أحمد صقر،دار المعارف،القاهرة،ط7 2010م،ص57-65،وإشارة له ص270، 271،ويُنْظَر أيضًا:الجاحظ:البيان

والتبيين،تحقيق عبد السلام محمد هارون،مكتبة الجاحظ،الكتاب الثاني،الناشر مكتبة الخانجي،القاهرة،ط7 1418هـ/1998م،جـ1 ص287، 288

(86)د.محيي الدين حمدي:مدخل إلى الصمت في النص المسرحي،مجلة كلية الآداب واللغات،جامعة محمد خيضر ،بسكرة،الجزائر ،العدد الثامن،يناير 2011م،ص1

(87)Ephratt,Michal, the functions of silence ,journal of pragmatics ,vol 40(11),2008

(88)د.جمعان بن عبد الكريم الغامدي:الحجاج في الخطبة النبوية،مجلة جامعة أم القرى،العدد العاشر ،مايو 2013م،ص344

(89)ابن حجر :فتح الباري،جـ8 ص121

(90)بيير بورديو :التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول،ترجمة درويش الحلوجي،دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية،دمشق،ط1 2004،ص70

(91)فاطمة عرفات الحلو:الاتصال الصامت وتأثيره في الآخرين،ص5

(92)خالد ميلاد:الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة.دراسة نحوية دلالية،كلية الآداب بمنوبة،والمؤسسة العربية للتوزيع،تونس،ط1 1421هـ/2001م،ص113

(93)محمد رزق ساطور :وقفات وفوائد في قصة توبة كعب بن مالك،ص49

(94)ابن قيم الجوزية:زاد المعاد،ص539

(95)الرازي:تفسير الفخر الرازي،جـ16 ص223

(96)مشهور أحمد استيبان:بلاغة الحجاج في قصة إبراهيم عليه السلام،مجلة فقه اللسان،الرابطة المحمدية للعلماء،مركز ابن أبي الربيع السبتي للدراسات اللغوية والأدبية،السنة الثانية،العدد الثاني،2017م،ص123

(97)يُنظر في هذا:خالد ناصري:الخطاب الشريف،ص45

(98)يُنظر :خالد ناصري:الخطاب الشريف،ص46

(99)ابن القيم:زاد المعاد،ص539

(100)في كون التوكيد من الأفعال الكلامية،يُنْظَر :د.مسعود صحراوي:التداولية عند العلماء العرب.دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي،دار الطليعة،بيروت،لبنان،ط1 يوليو 2005م،ص205-208

(101)د.عبد الله صولة:الحجاج في القرآن،ص316

(102)د.مسعود صحراوي:التداولية عند العلماء العرب.دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي،دار الطليعة،بيروت،لبنان،ط1 يوليو 2005م،ص206، 207

(103)خالد ناصري:الخطاب النبوي الشريف،ص120

(104)السابق،ص120،121

(105)د.جمعان بن عبد الكريم الغامدي:الحجاج في الخطبة النبوية،مجلة جامعة أم القرى،العدد العاشر،مايو 2013م،ص342

(106)ابن القيم:زاد المعاد،ص540

(107)د.مسعود صحراوي:التداولية عند العلماء العرب،ص 212، 213

(108)خالد ناصري:الخطاب النبوي الشريف في الأربعين النووية،ص122، 123

(109)د.محمد الولي:مدخل إلى الحجاج .أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان،مجلة عالم الفكر،المجلد الأربعين،العدد الثاني،أكتوبر–ديسمبر 2011م،ص12

(110)غانم عبد الصمد:تحليل الخطاب الحجاجي وفق استراتيجية الإيتوس في المشروع البلاغي لمحمد مشبال،مجلة إشكالات في اللغة والأدب،المجلد الثامن،العدد الخامس،ديسمبر 2019م،ص133

(111)السابق،ص133

(112)ابن هشام:السيرة النبوية،علق عليها وخرَّج أحاديثها وصنع فهارسها عمر عبد السلام تدمري،الناشر دار الكتاب العربي،بيروت،ط3 1410هـ/1990م،جـ4 ص156،والطبري:تاريخ الرسل والملوك،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،جـ3 ص101،وابن كثير:البداية والنهاية،جـ7 ص146

(113)سهام بورقعة:حجاجية الخطاب في الحديث النبوي الشريف.دراسة نماذج مختارة،رسالة ماجستير غير منشورة،قسم الأدب العربي،كلية الآداب واللغات والفنون،جامعة د.مولاي الطاهر–سعيدة،الجزائر،السنة الجامعية 2018/2017م،المقدمة،ص(أ)

(114)د.محمد الولي:مدخل إلى الحجاج،ص24

(115)السابق،ص24

(116)السابق،ص30

(117)السابق،ص31

(118)ابن حجر العسقلاني:فتح الباري،جـ8 ص120،والقنوجي:عون المعبود،جـ4 ص585

(119)نص هذا الحديث في كثير من أمهات كتب الحديث والتفسير وتاريخ الإسلام،بفروق طفيفة في ألفاظ معدودة،ومن ذلك ما في: البخاري:صحيح البخاري،تخريج وضبط وتنسيق الحواشي صدقي جميل العطَّار،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،2000م،كتاب المغازي،باب حديث كعب بن مالك،رقم4418،ص1077–1081،ويُنظر الحديث2757 وأطرافه المذكورة أرقامها بعده في هذه النسخة،ومسلم بن الحجاج:صحيح مسلم،اعتنى به أبو صهيب الكرمي،بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع،الرياض،السعودية،1419هـ/1998م،كتاب التوبة،باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه،الحديث رقم 2769،ص1109–112،والنووي:رياض الصالحين،تحقيق شعيب الأرنؤوط،مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،ط3 1422هـ/2001م،ص36–41،والقرطبي:الجامع لأحكام القرآن،تحقيق د.عبد الله بن عبد المحسن التركي،مؤسسة الرسالة،بيروت،لبنان،ط1 1427هـ/2006م،جـ10 ص413–419،وابن هشام:السيرة النبوية،علق عليها وخرَّج أحاديثها وصنع فهارسها عمر عبد السلام تدمري،الناشر دار الكتاب العربي،بيروت،ط3

1410هـ/1990م،جـ4 ص173-179،والذهبي:تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام،تحقيق د.بشار عواد معروف،دار الغرب الإسلامي،بيروت،ط1 1424هـ/2003م،جـ1 ص437-441.وابن كثير:البداية والنهاية،جـ7 ص192-198،ومعظم الحديث عند ابن القيم:زاد المعاد،ص530-532،وجزء منه في:النسائي:سنن النسائي،تحقيق رائد بن صبري بن أبي علفة،دار الحضارة للنشر والتوزيع،الرياض،ط2 1436هـ،كتاب الطلاق،الأحاديث 3422-3426،

قائمة بالمصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية

الباقلاني(أبو بكر محمد بن الطيب)(ت403هـ):

1-إعجاز القرآن،تحقيق السيد أحمد صقر،دار المعارف،القاهرة،ط7 2010م.

البخاري(أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة)(ت256هـ):

2-صحيح البخاري،تخريج وضبط وتنسيق الحواشي صدقي جميل العطَّار،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،2000م.

د.بسيوني عبد الفتاح فيود:

3-دراسات بلاغية،مؤسسة المختار للنشر والتوزيع،القاهرة،ط1 1419هـ/1998م.

البقاعي(برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر)(ت 885هـ):

4-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور،دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،د.ت.

الجاحظ(أبو عثمان عمرو بن بحر)(ت255هـ):

5-البيان والتبيين،تحقيق عبد السلام محمد هارون،مكتبة الجاحظ،الكتاب الثاني،الناشر مكتبة الخانجي،القاهرة،ط7 1418هـ/1998م

الجرجاني(أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن)(ت471هـ):

6-دلائل الإعجاز،قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،2000م

الجرجاني(ركن الدين محمد بن علي بن محمد)(ت 729هـ):

7- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة،تحقيق د. عبد القادر حسين،مكتبة الآداب،القاهرة،1418هـ/1997م

الجوهري(أبو نصر إسماعيل بن حماد)(ت398هـ):

8-الصحاح.تاج اللغة وصحاح العربية،راجعه واعتنى به د.محمد محمد تامر وأنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد،دار الحديث،القاهرة،1430هـ/2009م

ابن حجر العسقلاني(أحمد بن علي بن حجر)(ت852هـ):

9-فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري،رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي،المكتبة السلفية،القاهرة،د.ت.

د.حمادي صمود(مشرفًا على فريق البحث في البلاغة والحجاج):

10-أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم،كلية الآداب منوبة،جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية،تونس،د.ت.

د.حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار:

11-كنوز رياض الصالحين،دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع،الرياض،ط1 1430هـ

الذهبي(شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان)(ت 748هـ):

12-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام،تحقيق د.بشار عواد معروف،دار الغرب الإسلامي،بيروت،ط1 1424هـ/2003م

الرازي(فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر)(ت604هـ):

13-تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،ط1 1401هـ/1981م.

الرازي(محمد بن أبي بكر بن عبد القادر)(ت بعد666هـ):

14-مختار الصحاح، دار المعرفة،بيروت، لبنان،ط7 1435هـ/2014م.

الزمخشري(أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد)(ت538هـ):

15-أساس البلاغة،تحقيق محمد باسل عيون السود،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط1 1419هـ/1998م.

د.سامي مكي العاني:

16-كعب بن مالك الأنصاري.شاعر العقيدة الإسلامية،سلسلة أعلام المسلمين(18)،دار القلم،دمشق-بيروت،ط2 1410هـ/1990م.

السكاكي(أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي)(ت 626هـ):

17-مفتاح العلوم،ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط2 1407هـ/1987م.

ابن سلام(محمد بن سلام الجُمحي)(ت231هـ):

18-طبقات فحول الشعراء،قرأه وشرحه محمود محمد شاكر،الناشر دار المدني بجدة،د.ت

د.سمير سعيد حجازي:

19-قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر،دار الآفاق العربية،القاهرة،ط1 1421هـ/2001م

ابن سيده(أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي)(ت458هـ):

20-المحكم والمحيط الأعظم،تحقيق د.عبد الحميد هنداوي،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط1 1421هـ/2000م.

الصاحب ابن عباد(كافي الكُفاتة الصاحب إسماعيل بن عباد)(ت385هـ):

21-المحيط في اللغة،تحقيق محمد حسن آل ياسين،عالم الكتب،بيروت،لبنان،ط1 1414هـ/1994م

د.الطاهر أحمد مكي:

22-القصة القصيرة.دراسة ومختارات،دار المعارف،القاهرة،ط8 1999م

الطبري(أبو جعفر محمد بن جرير)(ت310هـ):

23-تاريخ الطبري(تاريخ الرسل والملوك)،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،سلسلة ذخائر العرب(30)،دار المعارف بمصر،ط2 د.ت

24-تفسير الطبري،تحقيق محمود محمد شاكر،سلسلة تراث الإسلام،الناشر مكتبة ابن تيمية،القاهرة،د.ت

د.عبد الرحيم الكردي:

25-البنية السردية للقصة القصيرة،مكتبة الآداب،القاهرة،ط3 1426هـ/2005م

د.عبد الله صولة:

26-الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية،دار الفارابي،بيروت،لبنان، وكلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة،تونس،ط1 2001م.

27-في نظرية الحجاج.دراسات وتطبيقات،مسكيلياني للنشر والتوزيع،تونس،ط1 2011م

العيني(بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد)(ت855هـ):

28-عمدة القاري شرح صحيح البخاري،ضبطه وصححه عبد الله محمود محمد عمر،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط1 1421هـ/2001م.

ابن فارس(أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا)(ت 395هـ):

29- مقاييس اللغة،راجعه وعلق عليه أنس محمد الشامي،دار الحديث،القاهرة،1429هـ/2008م.

القرطبي(أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر)(ت671هـ):

30-الجامع لأحكام القرآن،تحقيق د.عبد الله بن عبد المحسن التركي،مؤسسة الرسالة،بيروت،لبنان،ط1 1427هـ/2006م

القسطلاني(شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر المصري الشافعي)(ت923هـ):

31-إرشاد الساري،المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية،ط7 1325هـ

القنوجي(أبو الطيب صديق حسن علي الحسيني القنوجي البخاري)(ت1307هـ):

32-عون الباري لحل أدلة البخاري،شرح كتاب التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح،دار الرشيد،حلب،سوريا،1404هـ/1984م.

ابن قيم الجوزية(شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب)(ت751هـ):

33-زاد المعاد في هدي خير العباد،ضبط نصه شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط،مؤسسة الرسالة،ط1 1430هـ/2009م

ابن كثير(الحافظ أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي)(ت 774هـ):

34-البداية والنهاية،تحقيق د.عبد الله بن عبد المحسن التركي،دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان،القاهرة،ط1 1418هـ/1997م

كعب بن مالك الأنصاري:

35- ديوان كعب بن مالك الأنصاري.دراسة وتحقيق،د.سامي مكي العاني،منشورات مكتبة النهضة،بغداد،ط1 1386هـ/1966م،ص175

الكفوي(أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني)(ت1094هـ):

36-الكليات.معجم في المصطلحات والفروق اللغوية،مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،ط2 1419هـ/1998م.

الكوراني(شهاب الدين أحمد بن إسماعيل بن عثمان)(ت893هـ):

37-الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري.دراسة وتحقيق،محمد بن عمر بن محمد باجابر،رسالة ماجستير غير منشورة،قسم الكتاب والسنة،كلية الدعوة وأصول الدين،جامعة أم القرى،السعودية،1432-1433هـ.

د.مسعود صحراوي:

38-التداولية عند العلماء العرب.دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي،دار الطليعة،بيروت،لبنان،ط1 يوليو 2005م

مسلم(أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري)(ت261هـ):

39-صحيح مسلم،اعتنى به أبو صهيب الكرمي،بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع،الرياض،السعودية،1419هـ/1998م.

ابن الملقن(سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي)(ت804هـ):

40-التوضيح لشرح الجامع الصحيح ،تحقيق دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث،بإشراف خالد الرباط وجمعة فتحي،إصدارات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية،دولة قطر،ط1 1429هـ/2008م

ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري)(ت711هـ):

41-لسان العرب،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،2014م.

النسائي(أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان)(ت303هـ):

42-سنن النسائي،تحقيق رائد بن صبري بن أبي علفة،دار الحضارة للنشر والتوزيع،الرياض،ط2 1436هـ/2015م

النووي(أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي)(ت676هـ):

43-رياض الصالحين،تحقيق شعيب الأرنؤوط،مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،ط3 1422هـ/2001م

44-شرحه لصحيح مسلم،المطبوع على حاشية الصحيح،المطبعة المصرية بالأزهر،القاهرة،ط1 1347هـ/1939م.

ابن هشام(ت213أو218هـ):

45-السيرة النبوية،علق عليها وخرَّج أحاديثها وصنع فهارسها عمر عبد السلام تدمري،الناشر دار الكتاب العربي،بيروت،ط3 1410هـ/1990م

<u>ثانيًا:الرسائل الجامعية</u>

خالد ناصري:

46-الخطاب النبوي الشريف في الأربعين النووية.مقاربة تداولية في القصد والحمل والتقبل،رسالة دكتوراة غير منشورة،قسم اللغة والأدب العربي،كلية الآداب واللغات،جامعة محمد بوضياف بالمسيلة،الجزائر،الجزائر،2020/2019م

سهام بورقعة:

47-حجاجية الخطاب في الحديث النبوي الشريف.دراسة نماذج مختارة،رسالة ماجستير غير منشورة،قسم الأدب العربي،كلية الآداب واللغات والفنون،جامعة د.مولاي الطاهر-سعيدة،الجزائر،السنة الجامعية 2018/2017م

طارق محمد سليمان محمد:

48-الحجاج في خطب الحجاج.خطبته في أهل العراق،رسالة ماجستير غير منشورة،كلية الدراسات العليا،جامعة النيلين،الخرطوم،السودان،2019م

فاطمة عرفات الحلو:

49-الاتصال الصامت وتأثيره في الآخرين.دراسة قرآنية موضوعية،رسالة ماجستير غير منشورة،قسم التفسير وعلوم القرآن،كلية أصول الدين،الجامعة الإسلامية،غزة،فلسطين،1429هـ/2008م.

يارزمان جنت كل(منكل):

50-التكرار في القرآن الكريم وأسراره البلاغية،رسالة دكتوراة غير منشورة،كلية اللغة العربية،الجامعة الإسلامية العالمية ،إسلام آباد،باكستان،1432هـ/2011م.

ثالثًا:البحوث والمقالات

أمينة تجاني وليلى سهل:

51-الحجاج في القصة النبوية الاجتماعية،بحث منشور بمجلة العلوم الإنسانية،جامعة محمد خيضر بسكرة،الجزائر ،يوليو2017م

د.جمعان بن عبد الكريم الغامدي:

52-الحجاج في الخطبة النبوية،مجلة جامعة أم القرى،العدد العاشر،مايو 2013م

حسني محمد بدوي:

53-كعب بن مالك شاعر الدعوة الإسلامية،مجلة هدى الإسلام،وزارة الأوقاف والشئون والمقدسات الإسلامية،العدد الثالث،1983م

خالد ميلاد:

54-الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة.دراسة نحوية دلالية،كلية الآداب بمنوبة،والمؤسسة العربية للتوزيع،تونس،ط1 1421هـ/2001م

رضوان إبراهيم:

55-كعب بن مالك،مقال بمجلة التضامن الإسلامي،وزارة الحج،السعودية،العدد السادس والعشرون،1971م

سماح يوسف هويشل السميرات:

56-تداولية الحوار في حديث كعب بن مالك،بحث منشور بمجلة العلوم التربوية،عمادة البحث العلمي،الجامعة الأردنية،العدد الثالث،المجلد46،2019م

د.عبد الهادي أحمد سيد عبد العال:

57-الأساليب البلاغية لوصف أحوال النفس في حديث كعب بن مالك-رضي الله عنه-في صحيح مسلم،بحث بمجلة كلية اللغة العربية بأسيوط،جامعة الأزهر،العدد الثالث والثلاثون،الجزء الرابع،2014م

علي صبري:

58-كعب بن مالك،مجلة هدى الإسلام،وزارة الأوقاف والشئون والمقدسات الإسلامية،المجلد الثالث والعشرون،العددان الخامس والسادس،1979م.

غانم عبد الصمد:

59-تحليل الخطاب الحجاجي وفق استراتيجية الإيتوس في المشروع البلاغي لمحمد مشبال،مجلة إشكالات في اللغة والأدب،المجلد الثامن،العدد الخامس،ديسمبر 2019م.

محمد الحسين الواسطي:

60-أساليب الحجاج في البلاغة العربية،مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية،جامعة سيدي محمد بن عبد الله،فاس،المغرب،العددالثاني عشر،2001م

محمد رزق ساطور:

61-وقفات وفوائد في قصة توبة كعب بن مالك رضي الله عنه،مجلة التوحيد،جماعة أنصار السنة المحمدية،العدد 409، 2006م

محمد العبد:

62-النص الحجاجي العربي.دراسة في وسائل الإقناع،مجلة النقد الأدبي(فصول)،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،العدد 60،صيف0خريف 2002م.

محمد لبيب البوهي:

63-كعب بن مالك،مجلة الوعي الإسلامي،وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية،العدد الثالث،يوليو 1965م

د.محمد بن محمد الجوي:

64-أسلوب الحجاج في البيان القرآني،مجلة الوعي الإسلامي،العدد 501،جمادى الأولى 1428هـ

محمد محمد خليفة:

65-كعب بن مالك شاعر السيف والقلم،مجلة البحوث الإسلامية،الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء،المجلد الأول،العدد الأول،1975م

محمد الناصر كحولي:

66-الحجاج بالوصف.هنشير اليهودية لعبد القادر بن الحاج نصر أنموذجًا،مجلة آداب وإنسانيات،الجمعية التونسية للدراسات الأدبية والإنسانية،العددان السابع والثامن،2019م

د.محمد الولي:

67-مدخل إلى الحجاج .أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان،مجلة عالم الفكر،المجلد الأربعين،العدد الثاني،أكتوبر-ديسمبر 2011م،ص12

د.محيي الدين حمدي:

68-مدخل إلى الصمت في النص المسرحي،مجلة كلية الآداب واللغات،جامعة محمد خيضر ،بسكرة،الجزائر ،العدد الثامن،يناير 2011م

مشهور أحمد استيبان:

69-بلاغة الحجاج في قصة إبراهيم عليه السلام،مجلة فقه اللسان،الرابطة المحمدية للعلماء،مركز ابن أبي الربيع السبتي للدراسات اللغوية والأدبية،السنة الثانية،العدد الثاني،2017م

هشام القلفاط:

70-الحجاج التصويري في خطاب القرطاجني.تجلياته وأسسه،حوليات الجامعة التونسية،كلية الآداب والفنون والإنسانيات،جامعة منوبة،تونس،العدد59 ،2014م

رابعًا:المصادر والمراجع المعرَّبَة

بيير بورديو:

71-التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول،ترجمة درويش الحلوجي،دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية،دمشق،ط1 2004م

توماس أوكونور سلوان:

72-موسوعة البلاغة،ترجمة نخبة ،إشراف وتقديم د.عماد عبد اللطيف،المركز القومي للترجمة،القاهرة،ط1 2016م

خامسًا-المصادر والمراجع الأجنبية

(73)Ephratt,Michal, the functions of silence ,journal of pragmatics ,vol 40(11),2008